دروب أصفون



الكتـــاب: دروب أصفون
المـــؤلـــف: وليد مكي
تـدقيـق لغـوي: عبدالله أسامة
تنسيــق داخلي: سمر محمد
رقـــم الإيـداع: 2016 / 26789
978-977-6541-23-8 :I.S.B.N

المدير العام:محمد شوقي
مدير النشر: أحمد حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

دروب أصفون

رواية

وليد مكي



إلى والديّ، وأخي،
وقلبٍ رابع لا أدري متى ألتقيه.

التاريخ هو نافذتنا إلى الحق، والعدل.

هو قائدنا إلى اللّه رب العالمين.

يا دليل الحيارى؛ دلني على طريق الصادقين.

الإمام أحمد بن حنبل

إطلالة:

ليلٌ حالك، وصبيٌ في البلدة لم ينم بعد. والأم مهمومة له. ولما آيس هو من النوم قصت عليه القصة. قصة كل ليلة لا يأتي فيها نوم. لعل وعسى. وابتدأت الحكاية بقولها:

حــجّاك وبــجّاك

أبوالحصين[١] كَلْ غـداك

غداك رقيـق، رقـيق

والكلبة تنبح ف الطريق

الكلبـة عاوزه البتّـاوة[٢]

والبتّاوة عند الخبّـاز

والخباز عاوز المحساس[٣]

---

١ - الثعلب.

٢ - خبز يصنع من الذرة.

٣ - ساق حديدي يستخدم لزيادة اشعال نار الفرن الطين.

والمحساس ف قلب النخلة

والنخلة عاوزه القدوم

والقدوم جابو العجل أبو قرون

كسّر الزبادي[1] عند الصحون



١ - الطواجن المصنوعة من الفخار

حكاية أولى:

قوص – في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري.

فرغ المصلون في الجامع العمري من صلاة عصر ذلك اليوم، وخرجوا أفواجًا تبحث عن النعال التي تصارعت تلالًا فوق بعضها البعض على عتبة الجامع... المسير الآن إلى سوقهم اليومي الذي يعقد بجوار الجامع؛ حيث تحط رحال القوافل الآتية من عيذاب محملةً بالفلفل والبهار والحرير الهندي والنارجيل والكافور والقرنفل والصندل... قوافلٌ تقدم من الهند والصين تحمل خيرات هذه البلاد القصية، وتجارة النوبة حاضرة لا تغيب؛ فالرقيق المجلوبون من هناك يرسلون من قوص إلى الفسطاط مع سلع الحبشة من الخشب النفيس والعاج.

ومن بين الخارجين من المسجد كان الفتى "حامد" الذي قدم من إحدى قرى أسيوط يطلب السفر إلى اليمن؛ حيث يقيم أبناء عمه في بلدة هناك، وكان لزامًا عليه أن ينتظر بقوص لحين رحيل أقرب قافلة إلى عيذاب كي يذهب معها ومنها إلى عدن. لكن قوص بعمرانها ونظامها أسرته، وفوتت عليه القافلة تلو القافلة، وأصبح يمني نفسه بالرحيل عما قريب، وطلبًا للمال الذي أخذ يتناقص منه يومًا بعد الآخر اضطر للعمل عند تاجر أقمشة عظيم الشأن يدعى "أبو محمد بن مروان".

يقع دكان ابن مروان الواسع في وسط السوق... وخطابات حامد لأمه مع الراحلين إلى أسيوط لم تنقطع. وقد كتب يومًا إليها فقال:

"أمي العزيزة الغالية...

نزلت بقوص لا أنتوي الإقامة، ولو ليوم. لكن الله أراد لي أن أقر بها بعض الوقت. وجدتها محط الرحال، ومجتمع الرجال، حيث يفد الحجاج المغاربة، وتجار الهند واليمن والحبشة. قوص – يا أمي – أعظم ولايات مصر قاطبةً. فيها قاضي الإقليم ونائب المحتسب ودواوين حكم الإقليم وأهل الحكمة والماهرين من الصناع والحرفيين، كما أنها تحوي دارًا لضرب العملة وأخرى للعيار وضبط المثاقيل. وسوقها لم أر أعظم منها قط، لكل سلعة مكان مخصوص؛ فهنا يُعرَض الكليم الأسيوطي، ومن خلفه صابون قفط المصنوع من بذرة الفجل والخس المطبوخ، وهناك مقاطف ومنسوجات إسنا الصوفية السميكة. وجدت هنا "اليوسفي"؛ ذاك هو قمح منفلوط. لم أر من قبل قمحًا أعظم منه حبًّا ولا أثقل وزنًا. أما الدواب فلها مكان معلوم بالسوق. بجانبه يباع العبيد والجواري والغلمان وقد خصص الوالي لكل صنف منها يومًا لا يتعداه إلى يوم غيره. أصخب ما في السوق يا أمي أصوات المنادين. يختلط رخيمها بفاحشها:

عقال طبري. مفــرش طبرستان

حزام طبري. مفــرش جلــول

تيجان ديباج. عمامة خز كحلا

عمامــة دكتا... حصــر للصــلاة

وقوص يا أمي سمت على كل البلدان؛ حتى الأقصر. بمناسبة الأقصر سمعت يومًا وكيلًا لتاجرٍ يرسل مع الركب إلى سيده المقيم في الفسطاط خبرًا أن خشبهم المجلوب من جزيرة سعد بالأقصر قد وصل. قوص صارت منزل وكلاء التجار وملتقى الأفواج. عكاظ الصعيد هي. ألا يليق بها منظر العاصمة، وجلالها، واسمها؟!

ويوم الجُمَع لا بيع فيه ولا شراء. وتلك سيرة محمودة قررها نائب المحتسب. ونائب المحتسب يا والدتي هذا حكاية من حكايا الزمان. رأيته يومًا يتجول في السوق بنفسه. وقد أمسك عماله بتاجر بهارات يغش في الميزان. وفي لحظات أتوا به إليه. ونودي في الناس أن يجتمعوا لمعاينة عقابه. أوثق العمال تقييد التاجر من حيث اليدين والرجلين. كانت صرخاته تطلب الرحمة في غير موضعها. أُبطح أرضًا. وهوى نائب المحتسب بعصا رقيقة على باطن قدميه. كانت عصا تلسع بشدة. لدرجة أن صرخات التاجر ما زالت ترن في أذني. وعجيبة المكان؛ نائب المحتسب، كان يؤدي العقاب على أكمل وجه. وما إن أتمه حتى صاح في الناس بعلو صوته: "هذا جزاء كل من يطفف في المكاييل؛ ضربٌ على الأقدام وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد، هذا بلاغ للناس مني؛ أنا نائب محتسب ولاية قوص والقائم على ضبط أسواقها وذوق أهلها فاعتبروا يا أولي الأبصار".

وحالي يا أمي يحدثك عنها تلك الوطأة في النفس والحرج عندما أنظر في أحوال عمال سيدي "ابن مروان" الآخرين. كنت أعاين غمطهم الناس حقوقهم في القياس والقص. ولسعات عصا نائب المحتسب أتخيلها في باطن قدميّ يومًا. وصرخات التاجر الغشاش تنطلق ولا

تخفت. لكني لا أقدر أن أبوح بشيء لابن مروان. فأنا الغريب وإن صدقت يا أمي. أفكر بجد في أن أوثر ترك العمل على الصمت العاجز. واتتني منذ يومين فرصة شغل طيبة. عرفت أن خان "ابن العجمي" الفخيم في المدينة تنقصه أيادي العمال. إن اغتنمتها فيتوجب عليّ أن أترقب وأترصد لنزول القوافل بقوص. وأجدّ السير إلى ركبها. أعرض عليهم سبل الراحة المتاحة في فندقنا. وبقدر ما أجلب في يديّ من زبائن بقدر ما أقبض من مال.

ذكرت لك يا والدتي أن صخب السوق في قوص لا يطاق. وأصخب ما في السوق جدال العرب المتكرر. في هذه المدينة قبائل عدة. وبطون كثيرة. قيسية ويمانية. وصراعهم الأزلي الذي لا يموت، والذي ما قضى عليه حتى قرار الخليفة المعتصم العباسي يوم أن أسقطهم من ديوان العطاء. منذ ذلك اليوم تبدل حال العرب. وصاروا طبقة من عامة الناس. لا يمتازون عنهم بشيء. بعد أن كانوا أقرب إلى ولاة أمور. هكذا العرب دومًا منذ أمد بعيد. يومًا ذوو سطوة، وعشرة كالذباب؛ يُهشون فيرتعبون؛ محكومون بقهرٍ لا بدين. وحالهم المرثي لا يغير من جدالهم شيئًا. تنتهي كل قعدة في هذه السوق بالثناء على سياسة العبيدين تجاه العرب؛ أقطعوهم الأراضي. وأقروا لهم بأنصبة معلومة من خراف وألبان بهائم الفلاحين المصريين.

الخلاصة يا أمي أنني أنتظر أن أرحل بين يوم وليلة. ما إن تتوجه قافلة صوب عيذاب فسأنط فيها. ومنها إلى عدن. فلا تنسيني من الدعاء يا غالية".

ما إن بدأ حامد في طي الخطاب وإحكام غلقه؛ حتى بان صوت امرأة قادمًا من مدخل السوق. كانت عجوز يهودية؛ فقد كانت تلبس الزنار فوق إزارها. ذلكم أمارة نسوة اليهود. وبيدها تقلب بعض حصوات وتنادي:

قرّب هنا وانظر حظك. نضرب كفك ونشوف ودعك.



حكاية ثانية:

القاهرة – في أواخر القرن الرابع الهجري

تبدل حال الناس في أسواقهم فصارت بيوعهم تتم ليلًا، وسكنهم إلى بيوتهم يكون نهارًا وذلك نزولًا على أمر الخليفة الحاكم بأمر الله العبيدي... وفي سوق أمير الجيوش بحارة برجوان، وسط ظلمة الليل طغا على التجار والعامة التثاؤب فأجسادهم لم تعتد بعد على هذا الحال العجيب.. انقلاب سنن الله في أرضه... ماذا يظن الحاكم نفسه؟! اليوم يأمر بالبيع ليلًا والراحة نهارًا، ومنذ أيام يحظر على الناس أن يأكلوا الملوخية أو القرع ويزعم أن أبا بكر الصديق وعائشة كانا يحبان أكلهما.. ما للمصريين وكره العبيديين للصحابة؟! فإنهم وإن ارتضوهم حكامًا فلم يرتضوهم آلهةً يحللون ويحظرون.

كل حوانيت السوق مفتوحة أبوابها، تباشر أعمالها في ثقل إلا واحدًا: حانوت العطار عمار البحيري إذ وقفت عنده نسوة يطلب بعضهن الحناء العتيقة التي لا توجد إلا عنده، والأخريات يرغبن في شراء بهارات الهند والصين التي يرسل عمار خصيصًا في طلبها من قوص. ولما طال انتظارهن دون قدومه وآيسن من حضوره انصرفن قافلات إلى بيوتهن وهن يتساءلن في غيظ: ما الذي حمله على أن يخالف أوامر الحاكم ولم يفتح دكانه هذه الليلة؟! مجنون، ويومه أسود من قرن الخروب.



وفي القصر الكبير الشرقي الذي شيده المعز لدين الله الفاطمي؛ أطلق الحاكم بأمر الله من فوق سريره تثاؤبًا طويلًا، وراح يتمطى برجليه وذراعيه فاهتز سريره من تحته، و مدّ صوته مناديًا: **يا مسعود، أنت يا مسعود.** فأقبل العبد الأسود؛ فارع الطول. عريض الجسد، وكله وجلٌ أن يتأخر عن نداء سيده فهو لن يكون بأعز عليه من غلمانه الذين أمر بشق بطونهم عند جامع راشدة دونما سبب.

وقف مسعود عند قدمي سيده ثم دنا برأسه وأحنى ظهره حتى قارب الأرض فسأله الحاكم وفمه يلوك من أثر التثاؤب: **كم بلغنا من زمن النهار الآن؟**

رد مسعود وهو بعد محنيٌ لا يتحرك: **"بلغنا العصر يا سيدي".** فأطلق الحاكم ضحكة مجلجلة وقال وهو ينظر إلى السقف: **"أن يكون النهار ليلًا والليل نهارًا فهذا أمر عظيم".** ثم قطّب حاجبيه وشخص ببصره كأنما تذكر شيئًا هامًا وصاح في عبده: **"الرعية، الرعية... جهز لي حماري القمر لأباشر حسبة البلد بنفسي وأنظر في أحوالهم ومدى التزامهم بما أمرت".**



وفي السوق أغلقت كل الدكاكين والحوانيت أبوابها، واكتفى أصحابها بالنوم على دكك من الخشب أمامها لحراستها. لقد ظن الناس فعلًا أن النهار قد صار ليلًا يُهيئُ الحوانيت لسرقة ما فيها من بضائع. ولم تعد بالسوق حركة إلا ذلك الصرير الذي أحدثه عمار البحيري وهو يهم بفتح باب دكانه.

وفجأة... يدوي في السوق صوت مهيب:

موكب أمير المؤمنين الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي

فلينتبه الجمــيع

وظهر الحاكم متبخترًا في جبته الصوف البيضاء! وحماره القمر لا تعلوه دابة أخرى في الموكب وبجواره عبده الأسود "مسعود" الذي كان يستخدمه في تأديب المارقين عن هواه. يكفي ألا يلقى عبدٌ من عباد الله ارتياحًا في بال الحاكم. فيصدر أوامره لمسعود. **جرده من ملابسه يا مسعود. وأسلم ظهره إليك. واخترِق أحشاءه.** ومسعود؛ ربنا يعطيه الصحة والعافية. كالثور المستأجر للتخصيب. غير أنها أراضٍ لا يمكن أن ينبت منها إلا ما هو رجس.

قلب الحاكم نظره في الحوانيت المغلقة وأصحابها الذين أفزعهم صوت المنادي فاستيقظوا من سباتهم فعلته ابتسامة رضا فيها بعض كبر، وفجأة زعق؛ **ما هذا! حانوتٌ أبوابه مفتوحة نهارًا؟!**

ولما سمع عمار الزعيق سقط من بين يديه إناء فلفل هندي واصطدم بالأرض فصار أثرًا بعد عين... **الحاكم بأمر الله! ما الذي أخرج هذا الصبي اليوم؟ وماذا أقول له إذا ما سألني لم خالفت أوامري؟! يا رب أنت القوي فوق كل قوي.**

صاح الحاكم به: **أنت! ألم أنهكم عن ذلك؟** وأشار بيده إلى باب الحانوت المفتوح. فتقرّب عمار نحوه خطوة. أوصاله تكاد تتفتت من الرعب. يخطف نظرة إلى الحاكم المجنون. وأخرى إلى الثور مسعود. كاد

ينتحب رجولته. وفي عز الوجل خطرت له فكرة فخفض صوته في تلطفٍ وقال:

يا أمير المؤمنين أما كان الناس يسهرون بالليل فهذا من جملة السهر.

فتبدل وجوم الحاكم انفراجًا بدا على أساريره وأخذ يحملق في وزرائه من خلفه وأطلق ضحكة خيلاء وقال: **"ألم تعلم بأن السهر يضر الجسد ويؤذي الصحة. اذهب عفوت عنك"**. واستمر في الضحك المتقطع برهة. ثم صاح في الناس:

التزموا بما أفرضه عليكم، في سركم وعلنكم، فإني مطّلع عليكم فأعلم ما تأتون في بيوتكم!

وسار في موكبه يتبدل وجهه بين الوجوم والضحك وكأنه مجنون، أما عمار فتنفس نفسًا عميقًا بعدما أدركته النجاة وأنشد في صوت خفيض:

أرى فيك أخلاقًا حسانًا قبيحة

وأنت لعمري كالذي أنا واصف

قريب بعيد باذل متمنع

كريم بخيل مستقيم مخالف

كذوب صدوق ليس يدري صديقه

أيجفوه من تخليطه أم يلاطف

فلا أنت ذو غش ولا أنت ناصح

وإني لفي شك لأمرك واقف



العُربَـــــان

اتلمـــــوا ولاد الهـــوى يشكوا لقاضي الغرام

عشـق البنات يا قــاضي حـــلال ولا حـــــرام

حـــرام عــلى المتجــوز أمّــا العـــازب حـــلال

تلتيــن صبايـــا راحــوا فــي الهـــوى والغـــرام

غير السهر وتعب الصحة دي نهايتــك يا غـــرام

توبــة أسهــرولا أغنــي ولا أمشــي في الغـــرام

من الفلكلور الصعيدي القديم

أصفون – سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م

الوقت بعد صلاة المغرب بقليل.

تهبط حبات الندى مبكرًا على أوراق زراعات القصب المحيطة بالقرية معلنةً حلول الصقيع. يكسو البيوت ظلامٌ يبسط نفوذه على الأفق المحيط. تتغامز نجومٌ في السماء؛ تخبو وتلمع فجأة. وتتطاير بينها شهبٌ خاطفة. تسكن رياحٌ كانت هادرة طوال النهار. كأنها لما حلّ الظلامُ تعبت ورغبت أن تستريح! ويسري في الوجود تيار برد. من فوق أسطح الدور تنط ديوك وتصيح. تعلن اعتراضها على ما كان من ربات البيوت من التفريق بينها وبين دجاجات أثيرات. كانوا يتلاعبون سويًا منذ قليل. تهدأ الكلاب. تقلع عن النباح – فجأةً – لبرهة. ثم يهدر عواؤها ليملأ الآفاق. ويختلط نهيق حمير مربوطة في أوتاد زرائب بنقيق ضفادع ملأت مخادع قنوات المياه في الغيطان.

دور كثيرة كانت قد أوصدت أبوابها على من فيها. اتقاءً من البرد الذي انهمر مرةً واحدة وخيم على دروب البلدة. فحيح خافت يتسلل في الطرقات. قليلٌ جدًا من البشر يجتازون المسالك. يتجهون صوب نقطة واحدة. يتدثرون بأثواب لها خبخبة من الحركة. عند عتبات الجامع الكبير يستقرون. ومن حول قطنبة الشاعر وناره الموقدة يلتفون.

جلس قُطُنبْة متسيدًا الجمع. رعّش رأسه؛ فاهتزت عمامته الصغيرة. أحدَّ بصره في لا شيء فغارت عيناه السوداوان. نادى بلسان مبين. الحروف خرجت منه متقعرة كأنه نحوي ضليع:

مثل كل يوم؛ سنعيد حكاية الجامع الكبير في البدء يا رجال. فاليوم ينضم معنا خليفة الزاوي، ومهران ولد راشد. وكما تعلمون أن كل منضم جديد لا بد له من الإلمام بأصول حكاياتنا. قصة جامعنا الكبير، ومئذنته السامقة.

كان يعلو بنبرة كلامه فجأة حتى يحسبوه قد زعق، وينخفض بها على حين غفلةٍ فيحسبوه قد نعس. له في حديثه تمايل بأطراف جسده، ودغدغة في آذان مستمعيه.

تحمس الرجل لرواية القصة كأنما يحكيها لأول مرة. أعوام – طالت أو قصرت – قضى لياليها هنا، في ذات الموضع، ومن حول هذه النار التي يتجدد إضرامها كل مساء؛ يجتمع الجمع من حوله من بعد صلاة العشاء. ولا ينفضون إلا بضرب الصُرَم. قطنبة حاذق في قص الحكايا. يفض أسرارها كأنما عاينها. ينهل من معين الزمن ويسقي ظمأ مستمعيه. ولا مانع أن يضيف للحدوتة ما يجعلها أكثر إثارة.

عندما يقص فإنه يلوح بيديه. يتقارب حاجباه، ويتباعدا في لحظات خاطفة؛ كأنهما إبرتين تنغرزان في قماش. يحمّر وجهه وتنفر عروق رقبته وعمامته لا تثبت في موضعها.

حكى لهم كيف بنى الأوائل الجامع على أعلى ربوة في أصفون. وكيف غيرت الأيام والسنون في هيئته. وما صاحب بناء مئذنته من أزمات كادت تغرق دولة بني عبيد الله؛ فالمئذنة بنيت بعد قرونٍ من تشييد الجامع، حكى لهم كيف انهرس المستنصر بالله بين رحى مجاعة عظيمة، وفتنةٍ فرّقت الجيش وأحالته حزبين متصارعَيْن؛ الأتراك والسود. غابت

عنه بسمته واغتمّ وهو يعدد لهم أصناف الأوبئة التي اقتلعت من على الوجود أسرًا بكاملها. لم يكن هو قطنبة الماجن الخليع وهو يسرد لهم كيف هاج الناس وماجوا من الجوع، كيف صار القادر منهم يخطف الضعيف ويأكله بعظامه، وكيف أن جماعةً قد اعتلوا السقائف في القاهرة حينها؛ كانت معهم حبال بها كلاليب. وكلما مر عليهم إنسان انتشلوه بها وذبحوه وأكلوه، وكيف أن وباء الجوع قد جرّأ العامة على بغلة الوزير؛ ترصدوا لها حتى أخذوها من غلامه وأتوا عليها كلها.

استمر السرد بقطنبة، والوجوه حوله محنّطة. العيون سُمّرت في محاجرها، والأفواه قد فرُغتْ من الدهشة. صار المستمعون إليه مثله؛ كأنهم يسمعون الحكاية لأول مرة، وهو يزداد فخرًا ويكاد يختال تيهًا لإدراكه تلك القدرة الكامنة فيه على القصّ؛ فيحكي أكثر، وينفعل مع الحكايات أكثر.

لما جاءت السيرة على ذكر المستنصر بالله، أهمّتهم كربة وإحساسٌ بالنكبة. حزن في الصدور طفا على العيون فكاد يدمعها. يد قطنبة الملوِّحة بدت لهم كسيف قد أشهر لمّا تحدث عن اقتتال الجيش بعضه بعضًا، والجوع يفتك بالبشر. الخليفة لا حيلة له. بكى الرجال في دواخلهم ضعفه وانعدام قدرته. صبّوا – سرًا – اللعنات على الأتراك الذين بادروا السود بالقتال. وسرعان ما أبدوا الحنق المكتوم على أم المستنصر؛ سبب الأزمة، وبداية الداء. كأن الكرب انتقل من قصر المستنصر الذي صار خاليًا لا زاد فيه ولا متاع وحلّ في أجساد هؤلاء الرجال الذين يستمعون لذلك الشاعر الماجن في ذلك الموضع من الأرض.

ولما صاح قطنبة – تبددت هموم كست وجهه – فرحًا: **بدر الدين الجمالي.** تنهدوا جميعًا في نفس واحد. كأن شخصًا قادرًا معه عصا موسى فكّ عنهم عقالًا كان يقيد حركتهم. جابوا مع بدر الأرض، من عكا إلى القاهرة؛ لما استدعاه المستنصر. وعلى شفاههم التي جفت من الصقيع والنار ارتسمت بسمات واسعة حينما قال قطنبة بحروف مقعرة: **وتولى بدر الدين الجمالي الوزارة وكان أول الوزراء العظام.** هفهف البِشر فيهم. كأنها الحياة التي دبت في أوصال الجوعى والعطشى بعدما انصلح الحال على يد بدر. كأن الرجال من حول قطنبة قد صاروا جندًا في جيش بدر. يطاردون العساكر المتمردين من كلا الفريقين. وكأنهم رسل الأمان إلى البلاد والعباد. من شدة اندماجهم في الحكاية تخيلوا كيف بنيت مئذنة الجامع الكبير في بلدتهم. عرفوا سرها، وأيقنوا أنها عين بصاص محترف ترمق المهاجمين بأنظارها من بُعد. ما هي إلا برج من الأبراج التي بناها بدر الجمالي للتحصين، مكتوبٌ في أعلاها أنها شيدت في عصره. تمثّل لهم الطوب الآجر وهو يوضع فيها. لبنةً جنب لبنة، وقصر الملّ[1] يتخللها.

"دعمت أركانها وشرفاتها بأخشاب من جذوع الدوم. وبقي من المسامير التي تربط الأخشاب بعض ظاهر إلى اليوم" قال قطنبة. بان لمن حوله أنه قد ختم حديثه، وأتم حكايته.

سارع خليفة الزاوي وهبّ واقفًا. خيّمت غيمة تراب خفيفة من أثر حركته المفاجئة. ذاب الغبار فوق العمائم التي على الرؤوس. سأل:

---

١ - عبارة عن خليط للبناء من ماء وطين وفضلات البهائم

لم يقول الناس إذًا أن أصفون ارتدت سبع مرات؟!

نبيه الدين بن عبد المنعم؛ رفيق قطنبة، كان لتوه قد أفاق من سباته. معذورٌ فقد سأم حكاية كل ليلة وحفظها. قال وهو يحجب تثاؤبًا ثقيلًا بين فكيه وباطن كفه: **جبارين أهل أصفون. منذ القدم. جبارين ويفعلوها.**

قال قطنبة: **أصفون كانت من بؤر الشيعة. من مراكزهم العتيدة. الله لا يملكهم دنيا. كان ذلك في عهد بني عبيد الله. لكم أعز العبيديون عربان البر كله. ويحكى أننا – كعرب – كنا في صدارة الدولة وقتهم. في العطايا والهبات والمناصب. كان هذا بعد رحلة طويلة من المنع بدأها المعتصم بالله العباسي عندما أسقط العرب من ديوان العطاء. بعد بني عبيد الله أتى بنو أيوب وغالب أهل أصفون كانوا قد تشيعوا. هذا إن لم يكن كلهم. جاهد بنو أيوب وعزموا على رد الناس عن مذهبهم الجديد. ذات مرة ظنوا أنهم ردوا أهل أصفون عن غيهم. ما إن خرجوا من البلدة حتى أُذّن بأذان الشيعة، ولغير صلاة. عادوا. عاودوا الجهاد مرة بعد مرة. ولم يقتلعوا التشيع من الصدور إلا بعد المرة السابعة. ومن يومها يقال أن أصفون ارتدت سبع مرات. فعلها بنو أيوب، وإن منعونا حقنا وانفردوا بالرياسة والملك. وهم ليسوا عربًا.**

خليفة الزاوي كان لم يزل في موضعه واقفًا. استقبل الجواب بكل جوارحه. الجملة الأخيرة لم تغادر ذهنه. **"وهم ليسوا عربًا"**. تفتق لسانه عن تساؤل آخر مزجه بدهشة بالغة بدت على وجهه: **المماليك هم أيضًا ليسوا عربًا ويحكمون مصر؟!**

على الفور انصرف نصف المجتمعين. كالبرق وقفوا، كل واحد نفض التراب عن جبته وأمسك نعليه وطار بهما. لم يبق سوى قطنبة، وخليفة الزاوي، ومهران ولد راشد. نبيه الدين بن عبد المنعم كان حينها قد استفاق تمامًا من تثاؤبه. قال مخاطبًا قطنبة: **يا سبع الرجال: من هنا حتى قابل الأيام نبّه على مريديك أن يحسنوا الكلام. وأعلمهم أن للحيطان آذان.**

ارتعدت فرائص خليفة الزاوي. نبيه ألقى كلمته بوجوم شديد وكتم ضحكة مدوية في بطنه. قطنبة يعرف هزل رفيقه. وفي ذات الوقت يوقن أن للمماليك عيونًا وآذانًا في كل مكان. لكن من هم؟! الله وحده يعلم.

ولى خليفة ولم يعقب. أما مهران ولد راشد حينما دار أمامه ذلك الحديث لم يكن قد جاوز الخامسة عشرة: صبيٌ دفعه فضولٌ فيه وشقاوة أن يأتي إلى هنا كي يعرف من أنباء قطنبة التي يرويها. ولصغر سنه لم تتسرب إلى نفسه مخاوف كتلك التي كانت تُسمّر خليفة الزاوي في مكانه من الرعب. وجّه مهران إلى قطنبة تساؤلًا: **وأنت يا عم قطنبة: من أين لك بكل تلك الحكايات؟!**

رد قطنبة: **وقت أن كنت طفلًا كانت أمي تحكي لي كل ليلة حكاية. لما كبرتُ وأحسنتُ القراءة والكتابة طالعت كتبًا كثيرة. كنت كلما حللت بناحية طالعت ما فيها من كتب. وكلما دخلت قصر والٍ من الولاة في سفرات الشعر والمجون دلفت إلى مكتبته أعبّ منها ما وسعني. عرفت أخبار الصعيد قديمًا؛ قراه وكوره، مدنه التي كانت عظيمة وبادت؛ مثل قوص وعيذاب. وقفت على سير الخلفاء**

والحكام. من أول الخلفاء الراشدين حتى بني أيوب. الكتب جميلة، ومطالعتها أجمل. والأجمل من الاثنين حكايا الأم قبل أن تغمض العين للنوم. حكايا الصغر يا مهران يا ولدي!

خفتَ ضوء مصباح معلق على جدار الجامع الذي كانوا يستندون إليه. قال مهران متصنعًا الحكمة في بدء قوله: **الصغر؟! هو أنت يا عم قطنبة كنت صغيرًا مثلما كنا نحن؟!** قالها وانفجر ضاحكًا.

زعق فيه قطنبة: **امش من هنا يا لئيم يا ابن اللئيم. صبيان آخر زمن.**

خفقات الثياب وهي تعلو السيقان في المطاردة دوت في المكان. غاص مهران في الدروب الضيقة المضاءة بمشاعل زيت الفجل. تاه بين الدور الموصدة. عاد قطنبة ليجلس جنب نبيه الذي كان يقرقر في ضحك متقطع. جلسا يتسامران شعرًا حتى الفجر. الليلة ليلة عيد.



الليلة ليلة عيد الأضحى. أوقدت كل دروب أصفون بمشاعلها. هذه عادتهم في الأعياد، ولياليها. لا ظلمة حتى الصبح. والبرد ينثر ذراته في الكون



أنهى سليم غسله استعدادًا لصلاة العيد. عمد إلى قميصه الخزّ الأحمر، وسرواله الدِكتا؛ فلبسهما. وضع عليهما جبة صوف؛ طويلة، واسعة الأكمام، وعريضة. من باب الغرفة المنيرة مرقت مباركة. حانت منه نحوها التفاتة حانية. تبسم ثغره. على ضوء المصباح برق الزيت فوق شعره المنسدل على كتفيه. بِشرٌ غطى عينيه الواسعتين، وضياءٌ بان في جبهته العريضة. سارت مباركة إلى جانب في الغرفة. من على يمينه عبرت، ولم تتكلم. تتضوع منها رائحة نعيم مقيم. بيدها التقفت قارورة مسك كانت مسندة على خشبة تحمل أعواد بخور، ومشط، وعنبر، وسِواكيْن. عند سليم وقفت. أفرغت من القارورة قطرات على كفها الأيسر. دعكت كلتا يديها بالسائل الذي ساحت قطراته بينهما، كانت تقصد بذلك أن توزع العطر وألا يتركز في موضع واحد. ثم راحت تمسح من جبة سليم ما يلي صدره، وذراعيه. كان كفّاها قد سخنا عندما طوقت بهما عنقه. وحينها قالت: **عيدك طيب يا سليم.**

تلاشى كل الوجود من حوله. العطر الذي يخرج من فِيها أطيب من مسك القارورة الذي انطبع على جبته. رد سليم: **الله يطيب كل أيامك يا نور قلب سليم.**

لثم يديها. قبض على كتفيها بعد أن واجهها. كان بهاء طلعتها يفوق النور الذي يغمر الغرفة ويجيء من المصباح. قال: **غدًا أذهب إلى إدفو؛ أنا وأبوكِ. ومعنا جمع من عربان أصفون. سننضم إلى معسكر الشيخ الأحدب.**

تراقص النور في المصباح. اصفّر وجهها على السيرة. وتوارى من المشهد عطرًا كان يتضوع في الهواء. هي ابتعدت إلى الوراء قليلًا.

خطوتين، أو ثلاث؛ فانعكست على وجهها أضواء شموع موضوعة في كوة من الحائط عالية. قالت متوسلة: **لكن زواجنا لم يمرّ عليه أزيد من ستة شهور يا سليم.**

وبمثل توسلها كان حزمه: **هذا نداء واجب. وأنا لا أتخلف عن تلبيته.**

أعادت النظر في وجهه. كأنها تتفقد ملامحه؛ جبهته المديدة في كبرياء، أنفه الغليظة، قسمات وجهه التي وقرت فيها رجولة بلا حد. رجَتْ عينيه المرهقتين على الدوام، وزادت توسلها بدموع خنقت مآقيها:

يعني هذا الواجب لا يلبيه غيركم؟! عزيز الجاوي من سنك، وماله وفير يكفي لتجهيز جيشٍ بكامله. وعافيته مكتملة كالبغل الذي يعلف ولا يكتريه أحد. ومع هذا فإنه سيكتفي بالفرجة من داره. وأنت تلقي بنفسك في مواطن الهلاك. وتقول نداء واجب؟! وأمام من؟! المماليك!

ونحن؛ أليس لنا عليك حق؟! من في بطني ليس له حق؟!

لم يستطع سليم أن يواجهها وهي تتكلم. جلس على الشوار. أرخى يده تحته وسحب خفّين. وقال لمباركة وهو يقلب وجهه تارة إليها وتارة إلى حيث موضع قدميه:

حقكم عليّ أنت ومن في بطنك أن تعيشوا حياة كريمة. للرجولة ثمن، وثمنها لا تقدر عليه أموال عزيز الجاوي. كان الشوار يرتج وهو يجاهد مع الكلمات، ومع الخفين. أرهقته ثنية في الخف الأيمن من الوراء فأدخل سبابته بين الخف والقدم فمحاها، وتابع كلامه:

عزيز آخرته يقعد في بيته. يأكل ويشرب ويشير بسبابته هؤلاء على باطل، وأولئك على باطل. تركنا له الحق المحض يشبع به.

كانت مباركة حينها قد عرفت أن الكلام مع سليم لن يقدم أو يؤخر. كانت تمسك عمامة بيضاء، وطيلسانًا طويلًا وقت أن قامت من جواره؛ من على الشوار. وأمامه وقفت.

لفت العمامة على رأسه. وانسل من بين يدها طرفٌ جعلته ذؤابةً رفيعة على كتفي سليم. أزاحت شعره الراكد على أذنيه إلى الوراء. وأفاضت الطيلسان على جانبي صدره. دمعة يبرق لمعانها وسط بياض عينها الحوراء. تعتمل في صدرها خواطر عدة. عاد أريج المسك ليفرض نفسه من جديد. يقلقها ترقب قابل الأيام. تود لو أنها تجهش بالبكاء وتعلن العصيان. غير أنها تتذكر أنها في صبيحة عيد وأنها بنت الهادي عدنان فتقلع عن الفكرة، وتكف الدموع وهي على مفارق لحظيها. بالكاد نطقت له: **حظي العَثِر أن زوجي رجل.**

لم يتركها سليم حتى طبع قبلة على جبينها الذي كانت تغزوه موجة عرق دافئ. مسحه بكفه وأوصاها ألا تذكر شيئًا لأمها حتى يخبرها والدها الحاج الهادي عدنان بالأمر. وفي درب من الدروب، ونور الصبح يتنفس في السماء؛ اتخذ سبيله إلى الجامع الكبير.



ها أنتِ – يا مباركة – تجلسين وحيدةً في البيت.. خيالك ينسج حكايات عن المستقبل الذي لم يأت.. تحاولين توقع كيف يكون. تودين لو أن لكِ المقدرة على النفاذ إليه، معايشة حوادثه، استعجال أفراحه، وإزالة أكداره ومواجعه. لكنك تفشلين، فترتدين بذهنك نحو أقاصيص جدتك المرحومة "سمية". ويرتسم في عقلك ما كانت تحكيه عن صنوف العذاب التي لاقاها الأجداد على يد مماليك المعز بعد هزيمتهم تحت قيادة حصن الدين ثعلب. آهٍ واحدة لا تكفي يا مباركة. آهٍ واحدة لا تناسب ذلك الوجع الذي يخلفه رحيل سليم. ماذا تفعل الآهة الواحدة عند رحيل الحاج الهادي عن الديار؟! إنها الآهات تتلوها الآهات، والصرخات لا تتوقف؛ ممزوجة بالعويل والبكاء حتى العودة المرتقبة.

حرقةٌ بين الضلوع تختلج بنداء أمك المتقطع وأنتِ بعدُ طفلةً لتوها أجادت النطق: "ربِّ خَلِّ مباركة وبارك يا رب فيها". لهوكِ وأنتِ وديعةٌ في حجر والدك وهو يضحك قائلًا: "غدًا تكبر مباركة وتتزوج وأضع أولادها في حجري كما أضعها الآن".

كل الخواطر تحضر، حتى التي صارت نسيًا منسيًا، أو هكذا ظننتِ.

تذكرين سليم فتشهقين بالدموع. وكخيال بغيض يقفز في روعك وقت أن طلبك عزيز الجاوي للزواج. لقد فعل عزيز ذلك قبل أن يأتي سليم. عزيز بن بهي الجاوي؛ صاحب التجارة العريضة شيع في البلدة أنه رُفض. وأن الحاج الهادي عدنان قال له مستنكرًا: **كيف أعطيك بنتي، وريحانتي وأنت على هذه الحال؟!** وعزيز رد: **حالي؟! ما لها حالي يا حاج؟!** كانت كل أحاديث السمر في ذلك الأسبوع عن هذا الحوار، وأن الهادي عدنان كان جريئًا بقدرٍ لا يأتيه أحد. قال لعزيز: **أنت رجلٌ**

بلا مبدأ. لا تدافع عن مظلوم. وعربان كثر أغلبهم من العجائز سَمِعتَ قصص سحلهم في دروب أصفون ولم تعقب بجزع. ولم تهتز فيك شعرة. وفي النهاية تسألني ما لها حالك؟! وتريديني أن أعطيك بنتي. يركبني العار إلى يوم الدين!

كل الخواطر تحضر يا مباركة. حتى التي صارت نسيًا منسيًا. أو هكذا ظننتِ.

كل الأفراح، والأوجاع. كل دمعة بكاءٍ من عين الطفل الذي كنتيه. كل ضحكة رفيعة أطلقتيها. وأيادي أبيك وأمك تزغزغك فيما بين الجنبين تستجلب الابتسام. حتى صرخات الطلق المتتابع التي راحت أمك تنشرها في جوف الليل وقت أن بلغتِ العاشرة؛ وقت ولادة "يونس"...

يا ربي... يونس! أين يونس الحين؟! أتراه يذهب معهم؟! مصيبةٌ حلت بنا والله. زوجي وأبي وأخي؛ كلهم يسيرون نحو إدفو. إنه أمرٌ لا يحتمل كتمانًا.

تعزمين المسير إلى أمك وإخبارها، وليحدث ما يحدث.



بهاء التكبير في الجامع الكبير لم يكن يفوقه بهاء آخر في يوم العيد. أو كان في ذلك اليوم عديدٌ من البهاء؟! نعم: بهاء الثياب البراقة التي كست الأجساد. بهاء الجامع وهو يغص بمن فيه، وحصرٌ قد فُرشت في الخلاء

خارجه. بهاء الصبية وهم لا تسعهم الدنيا من الفرحة. نسيم الكون جديد. إي والله جديد: عبقٌ يفوح في كل الأماكن. ريح طيبة هفهفت في الدروب والحواري؛ أحدثت في ورق الأشجار حفيفًا كأنه لحن قانون تضرب عليه جارية مليحة في قصر الخلفية العباسي في بغداد؛ وقت أن كان العباسيون هناك. تراب الأرض كان لينًا، هامدًا لا يثور منه ثمة غبار؛ كأن رذاذًا من السماء سقط عليه بليل. وفي السماء كانت لم تزل نجمةٌ تبرز مقاومةً ضياء النهار الآتي من خلف الستار. بضع أسراب من الحمام الجبلي تحلق طلوعًا ونزولًا في الهواء؛ كأنها غادرت أوكارها في الجبل وأرادت أن تعيش العيد مع البشر. وكان القمر يتنقل ناعسًا بين السحب الخفيفة التي مرت بسرعة؛ يستعد للنوم بين أحضانها.

وعلى الأرض كان الأخضر الذي في أوراق القصب لامعًا بشدة، ظل هكذا حتى بعدما طلعت الشمس، لم يعْلُه غبار أو عَفَر. كل الكون فَرِح. كل الكون ينطق بالتكبير: الله أكبر الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله. ليس البشر فحسب، بل ذرات الرمال فوق قمم جبال الغرب البعيدة كانت تشدو بها. والسباع والذئاب استكانت في تلك الليلة ولم ترسل عواءها. أمانٌ من السماء هبط على الأرض ووصلها بها. حبورٌ كسا وجوه الناس السمراء وأنبت فيها بسمات لا تنقطع. أبواب الدور بدت – كالهواء، ككل شيء – صافيةً رائقة، ذات ألوانها هي لم تزل غير أن ثمة ما يطبع على العين حال رؤيتها أنها صارت أحلى وأبهى. هذا فعل العيد في الوجود.

انتظم الناس في صفوف وهم جلوس على حصر الجامع الكبير التي كُنست ونقيت من دنسها قبل يومين وتخلل أعوادها بخور مجلوبٌ من

بلاد الهند. لم يكن وقت التكبير قد انتهى بعد. بعضهم كان قد غفا عن صلاة الفجر إذ بان ذلك على العيون المتورمة من أثر النوم؛ فقاموا يصلون.

بجوار سليم استوى قطنبة. كانا صديقين؛ منذ الطفولة والصبا. حب قطنبة للمجون ما أثر على هذه الصداقة يومًا. قطنبة يحب التلاعب بالألفاظ في كل مجلس. يكثر من الهزل، ومن الدخول على الولاة وحكام الإقليم. يشعر في أنديتهم طمعًا في العطايا والهبات. سليم وجد في نفسه غصةً تجاه ما يفعله قطنبة. ساءه أن يكون رفيقه هكذا. عرض عليه غير مرة – نزولًا على ما توجبه العِشرة – أن يصحب قافلة تجارة له تقصد بلاد النوبة.

قال له: **اذهب، وانظر وعاين. وإن طاب لك الحال فاقتنِ وضارب. اطلب الكسب الحلال يا أخي.**

شهق قطنبة كالمصروع: **هو أنا أعمل منكرًا يعني؟! أنا شاعر يا ناس. قطنبة شاعر. يمزج كلامه بالحب والجمال، وبعض المجون أحيانًا. هبة من الله لا يبلغها كل الناس أن يكون المرء شاعرًا، وظالمٌ من لا يتحدث بهبة الله عليه. وأنت تريدني أن أذهب إلى النوبة؛ أجلب العبيد، وأقتطع أعواد البخور، وأحمّل في المراكب خشب الصندل. أصير عطارًا، نخاسًا؟! بذمتك أتدري ما تقول؟! أنا لا أطيق فراق أصفون، ودروب أصفون، والصبايا. زينة الدنيا الماء والخضرة والوجه الحسن. الوجه الحسن يا سليم وليس وجوه الزنوج التي شوتها الشمس.**

كلماته كانت تخرج متتابعة كرميات البندق. أتبعها بضحكة مجلجلة لما آتى على ذكر مفهوم الجمال عنده. أما سليم فقد أيقن أنه ينفخ في قربة مقطوعة. لا رجاء منها. لا رجاء فيها فأشاح عنه بوجهه.

الحق الذي كان يسطع في قلب سليم – وقطنبة أيضًا – أن حياة رفيقه وانغماسه في دوامة الدنيا هي من أصمّت أذنه، وأعمت عينه عن نداء كل جد، أن الدنيا قد غبنته في بيعة رخيصة؛ اشترت منه أعز ما يملك وأعطته أرخص ما عندها. ثم رمته في شباكها.

لكن ما حيلته وهو الضعيف الذي قرر في لحظة ما أنه لا رحيل عن أصفون! لا للتجارة، ولا للقرار ككل خلق الله! من ذا الذي يبصر النورَ وهو مقيد اليدين والرجلين في بئر سحيق من الظلام والعزلة؟! وهل يبصر النور من له حالٌ كحال قطنبة؟! حتى وهو يسير في الدروب كان الصبية يهرعون نحوه. يزجلون ويصفقون وينادون من غير وجل: **اعدل عمّتك يا عم قطنبة.** وهو لا يعدل العمامة ولا يضبطها. بل يزيدها اعوجاجًا. تلك الحال التي جعلت مهران ولد راشد يسخر منه بالأمس وسط الناس!

وهو في الجامع أيضًا لا يكف عن الغمز واللمز: ما إن قضيت الصلاة حتى صعد الإمام المنبر. جاءت خطبته ككل عيد. الوضع كما هو منذ زمن بعيد. خطبة معتادة؛ تحكي قصة الخليل إبراهيم والذبيح إسماعيل؛ الرؤيا التي أوريها الأب بالحق، اليقين الذي وجده في قلب فلذة كبده، الصبر الذي ألهمه والسكين على رقبته ثم رحمة الله التي هبطت على الأرض بكبشٍ أقرن. حكاها الخطيب كما حكاها من قبل؛ قصة التضحية والفداء العظمى صارت تقال سردًا بلا روح. دموع مصطنعة، وتشنج متكلف.

سليم كان حانقًا. لا يروقه الخطيب وهو يحكي القصة مجردة. زعق في سره: **رقاب العربان قد تطير بعد أيام. وهو يصرخ هنا: من على منبر الجامع الكبير عن إبراهيم وإسماعيل. ولا يخبرنا كيف نسير على نهج هؤلاء.**

ثم ردد بصمت: **إبراهيم نبي كان يوحى إليه. في الرؤيا وفي اليقظة. أما نحن فبشر عاديون. لا نملك سوى عقولنا التي يريد الشيخ – بقصد أو من غير قصد – أن يسلبنا إياها. وإلا فماذا يعد حكيه للقصة دون مثال من الواقع؟!**

أما قطنبة فقد كان في عالم آخر؛ قال الخطيب صارخًا: إسماعيل منكفئ على الأرض. يعد نفسه لأن يذبح. وأبوه يمسك بالسكين كي يحز بها الرقبة الغضة. والناس نحو الخطيب كانوا منجذبين. شخصت أبصارهم. كان بعضهم يهز جسده يمينًا ويسارًا ليريح مقعدته من ألم حصر الجامع. لكنهم جميعًا صامتين كأنّ على رؤوسهم الطير. إلا واحدًا كان بجوار قطنبة مباشرة؛ انفجر في بكاء مدوٍ.. بكاؤه كان كصيب منهمر حقًا. كنهر يتفجر صدقًا.

علام التأثر؟! لا يدري قطنبة. يصيبه الضجر. ينظر إلى الرجل شزرًا. يغمزه بيده في ركبته فبدلًا من أن يهدأ وتقر نفسه يعلو نحيبه وتشتد شكيمته. قطنبة تأفف. رفع صوته بالاستغفار علّ الرجل يصمت. لكن لا استجابة. زعق في غضب:

يا رجل أما سمعت في العام الماضي أن إسماعيل سَلِمَ وما أصابه شيء.

غرق الجميع في ضحك واروه عن العيون. إلا الرجل الباكي؛ ظلت دموعه تقطر كأنها من اللهب خُلقت.



قبل أن يهموا بالخروج جماعاتٍ من جامعهم، صافح كلٌ منهم الآخر. بحميميةٍ وود تعانقوا. كل خلافاتهم التي كانت أزالتها – في غمضة عين – ثغورهم الباسمة. الصغار تخلّوا عن آبائهم. فارقوهم وهرولوا نحو بائع هريسة كان ينصب قفصه على مقربةٍ من جدار الجامع القبلي. الشبان ممن لم يجاوزوا العشرين عامًا تجمعوا قبالة باب الجامع الرئيسي وانتظموا في حلقات يهزرون وكلٌ منهم يمني نفسه في العيد القادم بما هو أحلى. كل الأماني كانت تدور حول بيت العَدَل وبنت الحلال. غاية العربان دومًا امرأة ينكحونها وبيتٌ يعمرونه بالصبيان والبنات.

قطنبة ارتمى بين أحضان سليم؛ كأنه لم يره منذ أمدٍ بعيد. التقى القلبان قبل أن تتبادل الأحضان مواضعها، وبدأت بين الاثنين الأحاجي؛ ثمة قشعريرةٍ عذبة سرت في جسد قطنبة عندما تكلم إليه سليم: **ربنا يطيب أيامك يا شرف الدين**.

ماذا فعلت فيه الكلمة الاسم؟! أرقصته حتى الحنين، وألبسته ملامح جديدة؛ وجهًا وضاءً فيه مسحة حزن لا تكاد تُرى. طفلًا لاهيًا عاد أم شيخًا مهيب الجناب صار؟! إنه الاثنان معًا، وربنا العليم بما في قلبه الحين. كأن الكلمة كانت نشوةُ كأسٍ من الخمر خالصة. أو يد

حانيةٌ امتدت إليه وسط هذيانه في غيابة جب مظلم أن: أنقذوني؛ فأنقذته. منذ زمن لم يُنادى بهذا الاسم. شرف الدين! صرت مقطوعًا عن كل شيء يا قطنبة، حتى اسمك ضيّعته الأيام.

هتف من أعماقه: **ما زلت تذكر يا سليم. أنا نفسي قد نسيت.**

صالا وجالا بين ردهات الماضي البعيد. مشارب الأفئدة، ولهو الصبا. إطلاق السيقان للريح. ذكرا الشمس وشعاعها المتسلل بين ثمرات النبق المتدلية من الأغصان. كانت شجرةً على قارعة بستانٍ للهادي عدنان. دارت الأيام وتزوج سليم بنت صاحب الشجرة! كان فيها أنسٌ ظاهر، وظلٌ وافر فارتميا تحتها. مددا الأرجل. ذهبا كل مذهبٍ في الثرثرة. قطنبة من يومه كان كلامه مقعرًا، وحديث سليم عن أن ثمة حنانٍ مفقود، يكويه ويحرق أحشاءه. قال لقطنبة: **الحياة موحشةٌ بلا أبوين. الموت يحرمنا الأنس**. وقطنبة كان يتنقل وراء الظل المتغير مع تغير موضع الشمس في السماء. يرمي بجسده في الموضع الجديد، ويتلقى كلام سليم من أذن، ويطيّره من الأخرى. وسليم يعتب ويزجر. ثم تهدأ شكيمته. يناوله قطنبة بعضًا من النبق الذي التقطه من على الأرض ونفض عنه التراب. يبدي عدم رغبته في النبق لكنّ حديثه يرق، ووجهه يلين: **أتدري يا شرف الدين. لم أنا أظل محافظًا على رفقتك مع أنك لا تساوي شيئًا؟!**

كانت فتافيت من النبق تتراقص على شفته العلوية حينما رد قطنبة: **لماذا يا فصيح؟!**

قال سليم: **لأنك طيب. تعيش حياتك بالهزر لكنك طيب. لكن قل لي يا شرف الدين. زمان كنت غير ما أنت عليه الآن. ما الذي حدث؟!**

يقضم قطنبة نبقة أخرى ويقول بوجه كساه حزن مباغت: **ألم تقل منذ قليل أن الحياة موحشة بلا أبوين. تخبّط فيك الدنيا بكل أذرعها وأرجلها، ثم تصير غير ما كنت عليه يومًا.**

ثم انتفض واقفًا. ذهب حزنه بغتة كما حل بغتة. تسلق الشجرة وأخذ يغني!

قال سليم معلقًا على اجترار الذكريات: **هكذا أنت يا شرف. منذ صباك ضاحك لاهٍ.**

الجلبة من حولهما رغم صخبها كانت قد تلاشت في عقليهما واختفت. أكمل سليم وهو يتكئ بكفه على ساعد قطنبة فبان الفرق بينهما في الطول: **حتى يوم جئتك مخبرًا إياك نيتي الزواج بمباركة، كنت لا تبالي. وأيضًا حين تُشعِر لا تبالي. متى أراك مهمومًا مباليًا مثل بقية الناس؟!**

كأنما مط جسده من تحت رفيقه. ضم أصابعه ونصب سبابته ورفع حاجبًا فوق حاجب ورد قطنبة: **يومها قلت لك: لعل لا مبالاتي هي قمة همي.**

تجاوب معه سليم بفعل الحنين: **نعم، هو كذلك. وأتبعت بضحكة مجلجلة كما هي عادتك. لم يكن للضحكة من سبب. وقد خشينا وقتها أن يصحو أحد أهالي أصفون فيظننا من السكارى الهائمين في ليل الدروب ويطاردنا بعصاه فطرنا هاربين.**

ضحك الاثنان بشدة. اليوم عيدٌ ولا وجل من إظهار الضحكات وإعلانها.



سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م

الأحـــدب

جلست ومن خلفيَ المسند، ومُدّ بين يدي السُماط، وتجمع من حولي الأعراب. وكان هنالك جندي من الأجناد قد غمطه الفلاحون من بني مصر حقه. أومأتُ إلى كاتبي فأمسك بقلمه. اكتب أن:

"يا أهل ناحية كذا؛ عربانًا كنتم أو مصريين. أعطوا المسكين حامل الكتاب حقه، وإن منعتموه عنه منعنا عنكم حق الراحة والأمان. والسلام ختام.

من حاكم الصعيد وملكه محمد بن واصل العركي، الأمير الأحدب العربي".

هل يجرؤ أحدٌ على أن يعصي أمري، أو يخالف حكمي في كل ربوع الصعيد؟ كنتُ لأقطع رقبته وأذيقه هوان الدنيا. ذلك هو العدل؛ فأنا لا أظلم أحدًا، ولا آمرُ إلا بحق، ولا أقضي إلا بصدقٍ وعن علم. من أين يتأتى الظلمُ إذًا؟!

اليوم صار ملك الصعيد كله لي. كل الناس فيه في ظلي وتحت رعايتي. أنا المسؤول بحفظهم، والموكول إليّ حكمهم. في البدء كنت وحيدًا أسير وسط الحلم المضني، والعزلة المخيفة. واليوم كل هذي الجموع من حولي. حركتها رهن إشارة بيدي.

أنا محمد بن واصل الحُتّ العَرَكي الجُهَني. شيخ قبيلة عرك بمصر. وعرك بطن قديم من جهينة. قديمًا كنا نسكن جزيرة العرب. في الجبال، ومنها الحُتّ؛ فأُلحق بأسمائنا لملازمتنا إياه. قبل الإسلام كنا أهل بادية صرف؛ نتقاتل على أتفه الأسباب. والحروب تثور ولا تهمد إلا بعد سنين. القبيلة وشرفها هو الحق الذي لا يقبل القسمة أو التأجيل؛ فأن ترعى معزة لرجل من غير قبيلتنا في كلأ أحدنا فهي المهانة بذاتها، أن يأتي أحدٌ ويتجرع بيده شربةً من بئرٍ لنا فذلك شرر النار التي لا تخمد إلا بعد حين.

حُكي لي أن أجدادنا كانوا يلتحفون بالرمال. ولهم علم بالنجوم، ومسالك دروب الصحراء ومواطن العيون، ومكان حلول الجن، ومقار تناسلهم وفضلاتهم. كانت الصحراء تعج بحيوات كثيرة. وإذا أراد أحد من العربان المسافرين أن يحل ضيفًا في مناطق الجان ظل واقفًا عند موضع لا يتعداه. يصفق بيده يطلب الإذن بالدخول. فإذا ما سمع صفيرًا يجوب المكان علم أن الجن قد أفسحوا له ولمرافقيه مجلسًا، وأن نساءهم قد سترت أبدانها العارية المشتعلة من اللهب، وأن صبيانهم قد رقدوا تحت الرمال بعيدًا عن مواطن الغرباء. هكذا كانوا يعتقدون قديمًا. لم تكن صحراء العرب جامدة مجردة. لم تكن ثمة كثبان من رمال فحسب؛ فتحت كل حبة رمل كانت هنالك قصة وحكاية. وفي كل موضعٍ نزف دمٌ، أو قُتلت موؤودة أدمع صراخها حصى الجبال. هنا خطا عنترة وقال شعرًا في عبلة، وهناك هام قيس حبًا في ليلى وألبس قومه عار الشنار والبوار.

قبيلتي – جهينة – قبيلة عظيمة الشأن، كثيرة البطون والأُسر. نطاق سكنانا لم يكن يجرؤ أحدٌ مهما علا شأن قومه أن يخطو فيه خطوة إلا بعد أن يستأنس منا. وكانت العيون وسط القفاري منتشرة. كانت تُوجِد لنا سببًا من أسباب بقائنا وسط القحل. منها عين أُذينة، وعين يقال لها الظليل. وعيون تَيْدَد التي كانت تدفع في أسنان الجبال. وإذا ما نزلت إلى السهل لم تؤتِ زرعًا!

لما كنت صغيرًا كنت أتخيلني معاصرًا لهذه الأزمان السحيقة. مصاحبًا الشمس في لظاها، والأرض في فقرها وفي غناها. أمتشق الحسام، وأمتطي جوادي وأرسل في الفضاء صرخة غاضب. بدأ حلمي الصغير من فوق ربوة عالية. افترشت أرض الصعيد الذي ولدت فيه، وسبحتُ في الماضي؛ عن جهينة وقد ملكها الشتات. لو يمكنني الله وأوحد جميع بطونها وأجعلها بطنًا واحدًا: بطن محمد بن واصل.

نحن على كثرتنا وتفرعنا مئة فرع وفرع إلا أننا كنّا أصحاب خُلْفٍ فيما بيننا. كان شعر شاربي قد خطّته الأيام. أمسح عليه بيدي ألتمس رسمه فوق شفتيّ. ويطوف بي خيال أني أمسح متاهات الصحاري كلها وأزيل عنها الجهالة المعتمة. وأجمع من وسط الناس كل من دمه لجهينة، وأنظمهم صفوفًا صفوفًا. خلفي متراصين ولما أقول ملبّين فتقع كل بلدان العرب في يدي.

كبر الحلم فيّ وكبرت. حتى وجدتني هنا على أرض جديدة. أرض الصعيد الأعلى بمصر. وقلت: هل تقتل فينا الهجرة الأحلام؟! لا يا ابن واصل.

جاء الاسلام، وغمرنا بنوره. وأظلنا ظله. ولم نتخلَ عن القتال، والسيوف. كنا بعد مقدمه بقليل نسكن البوادي ولا نغادرها إلا للجهاد. شاركنا مع النبي في غزواته ومات كثير منا فيها ونالوا الجائزة الكبرى. يحكي الناس أن بعضنا كان يسكن واديًا يقال له؛ غوى. ولما قدموا على النبي محمد مسلمين قال لهم؛ بل هووادي رشاد وسماهم ببني رشدان. وهم إلى اليوم هناك.

مرت الأيام وهجر كثير منا جزيرة العرب. كنا نذهب مع جيوش الفاتحين. نغيب لشهور ولا نعود. نقاتل ونغنم وتطيب لنا أجواء البلدان فنقيم خيامنا فيها. نزلنا الشام، ومصر والأردن، وطاش بعضنا فأخذه الهوى إلى بلاد المغرب. ونزلنا بأرض الزنوج، واتخذنا منهم أزواجًا. صار لنا في كل بلد سلسال نسب ودم. تبدل الحال بنا وصارت الخيام بيوتًا من حجارة.

الحلم فيّ لم يمت.

رجوت أن أمتشق الحسام وأمتطي جوادي وأرسل في الفضاء صرخة غاضب؛ هل تقتل بيوت الحجارة فينا الأحلام؟ لا يا ابن واصل.

وقلت في نفسي: متى يجتمع المسلمون تحت راية واحدة؟ متى يحاربون من أجل غاية واحدة، ولا يتفرقون تحت سيل الرايات، وسبل الولايات، وكثرة الدول وتعاقبها؟! ألم يُبعث محمد حتى يكون الدين لله بحق؟! ماذا في شتاتنا من الدين حتى يستمر؟!

سرقني الحلم من ذاتي. وطغى عليّ في كل وقت. حتى جاء اليوم الذي صارت لي فيه زعامة بطن عرك من قبيلة جهينة العظمى. أنا ابن عمهم

وسيدهم المقدَّم. لا تسبق كلمةٌ كلمتي، وقولتي لا يعقبها حوار، وما دون ذلك فأنا الذي أجيزه. نظرت فيمن حولي من المرافقين والجلساء وممن يشاركون بالرأي عندما أسمح لهم بذلك. فلم أجد منهم رجلًا يشاركني الفكرة أو يؤمن بالمبدأ.

نصرة الدين يا رجال. راية الله هي الباقية. أعيدوا الأمجاد للزمان وللمكان. ولتكن الرفعة من خلالكم.

كلماتي حطمتها صخور النزاع والخُلف. ملعونة المشورة؛ لا تبقي سوى الكلام، وضياع الوقت مع محدودي الأفهام قليلي الأحلام.

لكنْ لم يمت فيّ الحلم ولم يخفت.

اختليت بنفسي ساعةً من الليل. حدثتني طويلًا في صمت. كأن الدنيا كلها قد صمتت لأتحدث أنا ولا أحد يسمعني. سوى نفسي. همت على وجهي والسماء كانت معتمة، مليئة بالغيوم تحجب البدر أن يدلني على الطريق. الهواء كان خانقًا. كان معدومًا. وأنا كنت أكاد أفقد أنفاسي.

لمَ يا قوم؟! لمَ الخذلان؟! لمَ لَمْ ترصدوا الفكرة من بين السطور؟! هل أخفقت أن أبين لكم بريق مجدكم إن فعلتم؟! وسيادتكم التي ستجدونها بين القبائل إن أقبلتم؟! آهٍ لو أن بيدي سيفًا يقتلع أرواح كل العربان بضربة واحدة لفعلت. لأرحت الأرض من شغبهم وأنسهم بالنزاع.

أحد رجالي قال مستهجنًا: تقول الوحدة. المسلمون كلهم يبقون كالروح الواحدة في الجسد الواحد؟! يعني نحن: الجهينيون، نرافق بني

هلال، نقعد معهم ونتبادل الحوار. لا وبل نقاتل في صفٍ واحد؟! كيف وهم من اتفقوا مع المماليك علينا من قبل؟! نفر ثم أكمل: لن يحدث هذا أبدًا.

كان حقًا ما قاله فبنو هلال قد غدروا من قبل واستغاثوا بالغرباء. لكن لا أدري ما سر الرغبة المتولدة فيّ أن أقتل هذا الرجل الأبله. أما بنو هلال فأمرهم مقدور عليه إن تحقق الهدف وبلغنا الغاية. ما أيسر رد الصاع بالمثل.

ضربت الأرض بقدمي أستصرخها الحل. انفلتت غيمة في السماء فزالت وحدة السحاب كاشفةً عن شهاب اشتعل وانطفأ في لحظة. وكما برق الشهاب فجأة لاح فيّ شهاب من الفكر والتدبير: النصرة للدين الذي أتى به محمد العربي. ذلك مفهوم. والنبي أقام دولته وكان عمادها من العرب. ما الذي يمنع أن أجمع العربان تحت هذه الراية فحسب؟ راية العرب. لا يثير العربي قدر أن يجرحه أحد في عربيته. ولن يبلغ العربُ آمالي إلا بإحساسهم بالدونية والمماليك يحكمونهم. لن أذكر شيئًا عن سلمان الفارسي. أو صهيب الرومي. أو حتى بلال الحبشي. سأنسج لهم قصة عن مآثر العرب وحسب، وحكايا العرب وحسب. وسأقص عليهم تمرد أبي عبد الرحمن العمري على ابن طولون. وتمرد الشريف حصن الدين ثعلب الجعفري على المماليك. وسأرسل رجالي ينشدون الحكايتين في كل دار، وفي كل مجلس، وعلى كل مصطبة أو رنك ترفرف عليه راية أمير من أمراء المماليك.

سأطرح عليهم أسئلة تورثهم الحيرة: كيف يملك رقابكم مماليك جُلبوا من أسواق النخاسين في غزوات تجار العبيد وصفقات آبائهم

الذين أرهقهم الفقر وأعوزتهم الحاجة؟! كيف يحكمكم هؤلاء وأنتم الأحرار أبناء الأحرار؟! كيف تقبلون بالزمان مقلوب الجسد؛ رأسه مدفونة تحت الأرض، ونعلاه عاليان في السماء؟! كيف رضيتم طوال هذه السنين؟!

سأقنعهم أن للعرب حقًا في الوجود وفي الملك. وتحت هذه الراية سأفعل ما يحلو لي وأحقق حلمًا كنت أراه بعيدًا. أن أكون محمد ابن واصل العركي موحد العربان. وحق الحدبة التي ترهق ظهري لأفعلن.

مضى على قسمي ثلاثة أعوام بالتمام والكمال. حلفته وأنا واثقٌ أني سأبر به. وسأبلغ ما أبتغي. لم يكن الطريق مفروشًا بالزهور والياسمين. بالعكس؛ ما أحنى ظهري سوى العربان، وثقل صدورهم عن دعوة ترفع أعناقهم إلى أعنة السماوات. وقعودهم عن الأمر في بدايته. ما نزلوا على مرادي إلا بثقوب قضيت ليالي وأيامًا أحفرها في جدران جهلهم المصمتة. بدأ ندى الصبر في الهطول على راحة يدي، والتقف الدعوة بعض رجالٍ هيأتهم الظروف. ظننت أن تفرقهم في البلاد مشتتين نقمةٌ وسوء حظ. قلت في نفسي لو أنهم بجواري يعضدون رأيي ويقوون كلمتي لكان خيرًا وأبقى. كانوا في فرشوط، وأصفون بإسنا، وإدفو، وبعضٌ منهم اختبأ عند بني كنز أعلى أسوان وتوابعها. لكن مع مرور الأيام أدركت قدر نعمة ذلك. كانوا يعملون كأذرع الأخطبوط، أو أرجل العنكبوت. الرأس عندي والأطراف هم. أعمدة في دعوة العربان التي صارت جذوة نار في كل درب، وشعلة ثورة في كل بلدة.

كثر القطر وانهمر المطر. انضم إلى الدعوة جموع وجموع. صرنا اليوم لا نُغلب من قلة. ولا بد أن نضرب دولة المماليك اليوم قبل الغد. قلت لرجال أمري؛ ما بالكم وقد فرض المماليك عليكم جبايات تنوؤن عن دفعها. ما بالهم يأخذونها بالجبر والسياط. وما بالنا نصمت ولا نتكلم؟!

كانت بداية الكلام مع الفلاحين من بني مصر. أبكيناهم حتى تضج القاهرة وتفزع.



قرية ما يقول العربان أن كل ساكنيها من المصريين

في وقت سابق من العام ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م

كان سواد الليل أهون من تلك العتمة التي انكبت على القرية. السواد صار بلا حد يقمعه. في السماء غيومٌ قاتمة حجبت كل شيء؛ النجوم، والقمر، والشهب. وعلى الأرض كانت كل الأنوار تغيب عن تلك البقعة. لا مصابيح ولا مشاعل قدرت أن تكسر ذلك الحاجز الذي صنعه الحزن المقيم في كل شبرٍ ها هنا. ولا حتى ثمة ضوء يظهر شعاعه من بعيدٍ على مد البصر. منذ أن حلت المغربية أوصدوا أبواب دورهم. أغلقوها على أنفسهم وصاروا يبكون من غير أنين. يتهامسون بالشكوى والشهقات تخرج من صدورهم في صمت فتكاد تشقها وتفتتها قِطعًا قطعًا. كان فعلهم مجرد همس يغلقون عليه بأكفهم إذا ما علت وتيرته عن القدر المحدد.

حتى لا يجأرون بالألم. حتى لا يجأرون بالدم الذي سال. حتى لا يجأرون بالظلم الواقع والكرامة التي مرغها العربان في التراب.

حُرّمت عليهم كلمة الظلم أن ينطقوها في وجوه المعتدين. ويوم أن تجرأ بعضهم وصدع بها تفرج الجميع على جزائهم ولم يقدروا أن يرفعوا أعينهم معترضين أو حتى يدفعوا عن أولاد قريتهم ما نزل بهم. لم ينسوا الحروف رغم الحظر، بل حفروها في صدورهم كل حرفٍ ينطق بآلاف الدمعات والصرخات. لم يكونوا هكذا منذ ثلاث سنين. يا خسارة الرجال حينما تشيخ وجوههم من القهر وهم بعدُ في عز شبابهم.

كانت من قبل دنياهم أحلى وأبهى: كانت وجوههم مكدودة لكنّ الضياء يعلوها دومًا. وقمة السعادة أن يتقاطر منهم العرق في عزق الأراضي وحرثها ثم يغرسون الحَبّ ويطلقون في الفضاء أغانٍ تحمسهم. في كل بقاع الأرض المحروثة كانت تنتشر أفواج من أبي القردان بلون ريشه ناصع البياض. وكانوا يشمرون ثيابهم وينزلون إلى قنوات المياه يمهدون لها السبيل كي تروي الأراضي الشراقي، وكذلك قلوبهم العطشى أيضًا. كانوا يمكثون طويلًا في انتظار الغرس أن ينبت؛ كأنهم يرتقبون نسلًا من لحمهم ودمهم.

كانت الدنيا أحلى وأسعد. وكانوا هم في كل موسم زرع، وبعد أن ينتهوا من جني المحصول تقام الأعراس. لديهم عادة تقضي بأن يتزوج كل فتىً بلغ من العمر ستة عشر عامًا. لا يتأخر عن ذلك يومًا أو يتقدم. في ذلك اليوم الذي يتم فيه العمر المقدور تراق على أعتاب قدميه دماء ذبيحة الفرح، وكانوا يقولون أن طاقة الرجل إذا ما بلغ لا بد أن تتقاسمها أرضان؛ أرض الزراعة، وأرض النسل. الفتى لأي فتاة لا يقل عمرها عن الحادية عشرة! تظل النسوة أسبوعًا كاملًا يخبزن ويجهزن ما يلزم للولائم، وكن يعتبرن ذلك الأسبوع فرصة للاختيار والانتقاء؛ كل واحدةٍ منهن تصوب ناظريها نحو من ترى من بنات القرية صالحةً لأن يقترن بها ابنها الذي يحل موعده في العام المقبل. والأعراس تستمر أسبوعًا آخر يأكلون فيه ما تم تجهيزه طوال الأسبوع الأول. ينصبون الأسمار وتقام في الخلاء حلقات الغناء، وتسمع الدنيا زمرهم وطبلهم.

ذلك الماضي القريب بدا لهم وكأنه قد انسحق منذ قرون. أوحشتهم طلّة الشمس وهي بهية. ما أحلى ضياءها. ما أحلى همتهم وهم يبكرون

أفواجًا نحو المساقي والغيطان. صبيتهم؛ كان بعضهم يسير خلف قطعان أغنام نحو مراعٍ مُلئت بالكلأ على أطراف البلدة، وبعضهم الآخر أمسك بعيدان قصبٍ ذابل وأخذوا يسوقون بها الجواميس والأبقار – بعد ما حلبتها الأمهات – كي يطلقوها في أطراف الغيطان. كانت المواشي تأكل العشب وتتنسم ضوء الشمس. من شدة بهاء ودفء ذلك الضوء الرباني انجذبت نحوه كل الموجودات هنا.

واليوم أين ذهب ذلك الماضي القريب؟! خطفه العربان أم هوت به الريح في بئر سحيقة؟! ما عاد موجودًا، وصار صعبًا أن يعود من جديد، وتبدل كل شيء منذ أن تمكن العربان من حكم الصعيد.

لكنّ الناسَ هنا من هم؟!

هم خليطٌ من عرقين. بعضهم تعود أصوله إلى قدماء المصريين، وكانوا قد ولجوا في الإسلام أفواجًا بعد الفتح. نصرهم الدين الجديد بعدله على المحتلين الرومان فنصروه بالانضمام إليه. وبقية أهل القرية من عرب الجزيرة ممن وطئوا البلاد أثناء الفتح أو بعده. هؤلاء على أي حالٍ قدموا إلى هذه الأرض قبل قبائل العربان التي دان لها الصعيد اليوم، وأصبحوا لا يعتبرون من سواهم.

قال أحفاد المصريين للعربان الحاكمين: نحن أبناء عمّ، وقد قدم أجدادنا قديمًا جدًا من جزيرتكم. عبروا البحر واجتازوا بلاد السودان والحبشة واستقروا في مصر. انظروا إلى تلك الرسومات المنقوشة على جدران معابدهم: فقط دققوا النظر في القماش على رؤوس أجدادنا؛ ألا يشبه ذلك الذي كان أجدادكم في الجاهلية يضعونه فوق الرؤوس وتسمونه اليوم بالشماغ؟!

وقال لهم العرب الأوائل؛ نحن أبناء عمّ، قد سبقناكم إلى هذه البلاد. ارعوا فينا الدم الواحد والدين الواحد واللسان الواحد.

صرخ قائد الرهط المبعوث من قبل الأحدب من فوق فرسه: الآن نحن أبناء عمّ. ألم ينهكم الأحدب عن دفع الجبايات للمماليك؟! أبناء عمّ وتخالفوننا الرأي وتأبون العزة. فلينفعكم المماليك!

كان كل من في القرية قد سيقوا إلى رحبة متسعة. صاح أحد الرجال؛ ما تنوون فعله ظلم وحرام. وكانت هي الكلمة التي بسببها انهال قائد الرهط عليه ضربًا بالسوط. ثم جال رجاله في القرية واقتحموا بيوتها. سلبوا المواشي والدجاج وارتفع صياح النسوة اللاتي هرعن إلى دورهن ثم تبعثرن في الدروب. التفوا إلى شون الشعير فأضرموا فيها النيران فغطت غيمة سوداء سماء البلدة.

كل شيء في هذا اليوم تمّ بسرعة مذهلة. هم ذواتهم لم يعرفوا كيف سيقوا إلى الرحبة وهم راضون، وكيف لم تسبق منهم أية مقاومة للرجال فوق الأحصنة. كيف رأوا السوط يهوي على من اعترض على العقاب النازل بهم ولم يقدر منهم أحد أن يهمس حتى بكلمة؟! كان الجرح عميقًا لأن سبب الصمت كان هو القهر.

غادر رهط العربان بعد أن صرخ قائدهم بذات صوته الغليظ: تقفون مع من ظلمونا وطغوا علينا. هكذا هو الجزاء.



أصفون – ظهيرة اليوم الأول في عيد الأضحى

سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م

الشيخ الفضل

كان الجو ما زال نديًا، وتباشير العيد ما زالت تعلو في السماء عندما غادر جمع الأجواد داري. جاءوا معًا، وذهبوا متفرقين في طريقين. بكر، وجابر وعثمان شقوا طريقهم نحو الجنوب. أما الهادي عدنان فقد رافق زوج ابنته سليم بن أحمد نحو الغرب، كانا غاضبين بشدة هذه المرة، ولهما كل الحق في ذلك.

قبل أن يحلوا كنت أنتظرهم من بعد صبيحة العيد. إفطاري الذي قُدم لي على صينية النحاس المكفّتة بالفضة – والتي جلبتها أيام عز من القاهرة – لم أتناول منه سوى بعض لقيمات. ثم جلست على مصطبة الطين التي تقع لصق باب الدار. تربعت وأمسكت بمهشة الذباب وظللت أرتقب وصولهم.

وهن العظم منك يا فضل، وصرت جسدًا من طين ملقى على طين.

دارت في بالي هموم العمر الذي يمر، والمشيخة التي تثقل أعباؤها. رغم أن قبيلتي؛ الدُورية، صغيرة العدد إلا أن الصراع مع المُزْدية جعلني هرمًا قبل الأوان. جذوة النار في جوانحي ألبستني عمرًا غير عمري. لكنّ الهم همي أنا ومعي كل الدورية منذ أن وطأت أقدامنا أرض أصفون من

بعد الفتح. همٌّ عمره زمن طويل جدًا. أول ما تنازعنا كان السبب قسمة المراعي بيننا وبينهم. تساوينا في مقدار الأراضي لكن المزدية استأثروا لأنفسهم بالمواضع التي تعج بالكلأ. نظروا إلى عددهم الكثيف وقالوا هذا لنا وذلك لكم. رغم أن النيل كان عامرًا وكان الفيضان يأتي كل عام بالخير إلا أن كلام الكِبْر الذي قالوه أوغر صدورنا. اعترضنا وحاججناهم. ولمّا لم يأذن الله بالوفاق احتكمنا إلى القتال.

أنهكونا الله يبيدهم، وسقونا المرّ وأرغمونا على الرضا أذلاء. بل انتقصوا من مراعينا شيئًا غير يسير. ومن يومها صارت لهم زعامة أصفون ونحن لهم تبع. زرعوا وتوسعوا وتاجروا وأثروا وأشار لهم كل الناس في بر إسنا بالبنان. شيخهم بكر يمتلك بمفرده حوزة من الأراضي قدّرها القيّاسون بعشرين فدانًا. وله خمسون رأسًا من الأبقار والجاموس، وثلاثمائة رأس من الغنم، وإصطبل كبير مليء بالخيل والنوق التي طالما عفّرت بحوافرها دروب أصفون.

لكن ماذا يملك الدُورية اليوم؟!

إذا كنت أنا شيخهم لا أحوز من متاع الدنيا سوى فدانين يتيمين من الطين وعشرة أغنام هزيلة فماذا يملك المساكين: أبناء قبيلتي المقهورة؟! ولولا ذلك المجلس الذي يعقد كل أسبوع مرة في بيت أحد الأجواد الخمسة ما بقي لنا من ذكر في بلاد العربان. آهٍ من المزدية وسياستهم المقنعة بألف قناع. هؤلاء الناس لا تحسبُ الأموال قد غيرتهم أو ألبستهم كبرًا غير الذي كان لهم في البدء حينما قالوا هذا لنا وذلك لكم. هذا لنا وذلك لكم: تلك كلمةٌ لا تقال إلا وقت الخُلف أما في وقت السلم والصلح فالمزدية مهادنون مسالمون متواضعون يخالطون

الجميع. لولا طباع التجار تلك فيهم ما أتاني بكر في عقر داري كي يحضر جلسة هذا الأسبوع.

لكن من السبب فيما جرى لنا سواهم؟! حتى وإن اتشحوا بكل أوشحة الوقار، أو لبسوا كل ألبسة البراءة! إنها الخطيئة الأولى؛ حينما استحكم فيهم الطمع وقست علينا قلوبهم ونالت منّا سيوفهم. ولئن كان الزمن لا يعود حقًا غير أني عازم أن أسيره في قابل الأيام على هواي، وهوى كل دُوريّ. وليس على هوى المزدية.

المُزدية جميعهم لا يؤيدون حرب الأحدب على المماليك. يخشون الرياح الجديدة أن تهب على نفوذهم وأموالهم وتستبدل مكانهم بآخرين. هم يشيعون أن كلا الفريقين على باطل. بكر والفتى عزيز الجاوي هما من يروجان لهذه الفكرة لكن الشيخ الخبيث ينفثها ببطء وعلى مَهَل، بينما يجاهر بها الفتى الخفيف في كل منزل. يعلم الله أنهم يدركون أن الحكام الجدد لا بد لهم من اقتلاع كل قديم إن أفلحوا، والمزدية من أصل ذلك التراث السمج الذي كاد يخنقنا. مجرد وجودهم على الأرض يذكرني بالظلم الأول والخيبة الأولى؛ أثخنونا ضربًا بالسيوف، وبيدي حملت جثث كثيرين تناثرت أشلاؤهم هنا وهناك.

مر الزمن ورضينا إلى حين، وقلبي كمرجلٍ يغلي يتعجل الأوان. لكن هذه المرة لا بد أن تُلعَب بصنعة، وعلى نار هادئة.

جمع الكبار كان على رأسه بكر يتوكأ على عصاه ويمشي على مَهَل. لما أبصرتهم انتصبت واقفًا. وهم يلزمون ذلك المشي الرتيب احترامًا لسير بكر وهو أكبرهم سنًا. هيا تقدم يا كبير المزدية. أسرع في خطاك أم

تظنني سأهرول نحوك مستقبلًا مهللًا؟! كان يرفع قدمًا ليطأها فما يظن الرائي إلا أن الموت سيعاجله قبل أن يتثبت في الأرض. تخدعهم بتلك المشية لكن لا تخدع العبد لله يا بكر، وحق الله لجِذعُك ممدودٌ تحته في باطن الأرض أضعاف قامتك أيها القصير! كان على يمينه الهادي عدنان. طويلٌ قامته ممدودة، يداري صلعته بعمامة بيضاء. أعرف تلك الصلعة منذ أيام السمر الليلي في داره. كنا نتبسط في الحديث ونتخفف من وطأة العمائم، هذا قبل أن يجاهر الأحدب بحربه على المماليك وتصير كل حياتنا جدًا. كبر الهادي وصارت له لحية كثة، بل وشابت كلها. كانت قصيرة لا تبلغ أول صدره الواقع فوق البطن الممتلئ. الهادي هو النقي الوحيد من بين هؤلاء الأجواد. الوحيد فيهم الذي يمكنه أن يضحي بكل ما يملك من أجل ما يؤمن به من الثورة على المماليك. ألم يرفض عزيز الجاوي زوجًا لبنته، وقال له في وجهه: أنت بلا مبدأ. اعتَبَرَه جبانًا، أنانيًا. وشاع الحديث أيامًا بين أهالي البلدة. الهادي مسكين؛ لم يدرِ أن بكرًا لا يختلف عن عزيز، وأن كل المزدية على قلب رجل واحد. عزيز وحده دونهم هو الذي يزلف لسانه ويصرح أكثر من اللازم.

مشيتَ في درب الذئاب يا أبا مباركة!

لا يقل جابر – شيخ العمّارية، والذي كان يسند ذراع شيخ المزدية الأيسر- عن بكرٍ بحال من الأحوال. العمّارية وآل خليفة – شيخهم عثمان – ظُلموا كما ظُلمنا، لكنهم لم يقفوا منذ البداية في وجوه المُزدية. اكتفوا بالخوف منهم بعد ما رأوا ما حلّ بنا.

وحدنا نحن بقينا نحمل الثأر ونكتمه، ووحدي أنا بقيت أرتب للساعة وأنتظرها.

أدخلتهم القاعة المتسعة التي في أول الدار. من فيها لا يسمع صوت من خارجها، ومن خارجها لا يصل إليه حديث من في داخلها؛ كأنها عُزلت عن العالم بأسره. أجلستهم على فرش مزركشة مُدت على الأرض. بكر أسند ظهره إلى مسند محشو بالقطن كان قد نُصب إلى الجدار. وأنا رحت؛ بعُدت خطوتين وبلا مسندٍ حطّ ظهري على الجدار المقابل؛ الطيني، المليء بالنتوءات. كنت أواجهه في الجِلسة؛ فاليوم تتساوى الرؤوس وتتعادل الأجساد يا بكر! والبركة في الأحدب الذي منحني بحربه تلك فرصة الخلاص.

الهادي استبق الكل وخاطب الجميع: **اليوم هو يوم القرار الأول والأخير. من سيغادر أصفون ويأتي معنا نحو إدفو؟!**

قال جابر الذي بدا كأنما ارتمى تحت قدمي بكر الذي كان يتصنع الإعياء: **ما قولك يا شيخ بكر؟!**

تنحنح عثمان وزمّ شفتيه فتقوس شاربه الصغير وقال كأنه يهمس: **آل خليفة عن بكرة أبيهم وراء الشيخ بكر وطوع كلمته.**

عن بكرة أبيهم؟! ما عليكم من لومٍ يا قلة الرجال. عددكم لا يجاوز المئة رجل وتقول بملء فمك: عن بكرة أبيهم. لعن الله الجبن الساكن فيكم.

قاطعت الجميع موحيًا أني أفض نزاعًا نشب: **نشرب النعناع المغلي أولًا ثم يصير لنا حديث يا مشايخ العرب.**

صببت النعناع في فناجين خزفية بيضاء. تصاعد البخار منها وأنا

أقدمها لهم واحدًا تلو الآخر. عدت إلى مكاني وناديت على سليم. أتى وأخذ فنجاله وعاد مرة أخرى إلى ركنه القريب في أقصى القاعة.

قال بكر وهو يدق بعصاه على الأرض؛ **المصيبة كبيرة. الحرب قد تعني شيئًا في حال النصر، وقد تعني أشياء في حال الهزيمة. القرار صعب.**

رد الهادي وقد نكت الفنجال على الأرض بجانبه كأنما قد غضب. هم بالوقوف؛ **ما الصعوبة في القرار؟ هي كلمة واحدة؛ إما نذهب ونحارب المماليك، أو نظلّ في البيوت كالنسوة. ما الصعوبة في أن نموت وجباهنا مرفوعة؟!**

اعتلى الغضب المصطنع وجوه بكر وجابر وعثمان فأدركت أنها لحظتي للتدخل فقلت متسائلًا: **أظن أن الشيخ بكر يريد القول أن المزدية ليس من بينهم رجلٌ سيغادر أصفون نحو معسكر الأحدب؟!**

انتفض بكر: **ماذا تقول يا كبير الدورية؟!**

هب عثمان مذعورًا بعد أن وضع فنجاله على البساط: **ليست الرجولة عند من سينضمون إلى الأحدب وحسب.**

قلت في نفسي والغيظ يكاد يخنقني: مالك أنت بتبرير قول بكر! تخشون القيل والقال وتعدون له الرد من الآن. يا لخبثكم.

كان الجميع قد وقف في مكانه. إلا بكرًا انكفأ على عصاه وأطرق في الأرض. قال الهادي؛ **يعني ماذا تبغون الحين؟! هل سيذهب المزدية والعمّارية وآل خليفة معنا أم لا؟!**

عاجلته بالرد: **أنا عن نفسي أتعهد بخروج عشرين رجلًا من الدورية وأكون أنا على رأسهم.**

ساد الصمت للحظة في المكان. وعلا الوجوم وأطرقت وجوه غرمائي إلى الأرض. لقد قهرتهم اليوم وصيّرتهم إلى ما أريد.

تنهد الهادي وهز رأسه وهو يقول: **معلوم. الجواب بائن من تلك الوجوه الواجمة.**

اندفع نحو الباب وأعقبه سليم. ومن بعدهما أسند جابر وعثمانُ بكرَ المزني وأنا خلفهم أصيح: **يا أجواد. يا عربان. يا مشايخ العرب. لا حول ولا قوة إلا بالله. استهدوا بالله وعودوا نجد حلًا.**

لم يجبني أحد. وأنا لم أكن أود ذلك.



على عتبة البيت أسندت إشراق ظهرها إلى الباب المعمول من خشب الجميز. كانت تلبس غلالة سوداء بانت أطرافها المتدلية من تحت رداء صوف منمق، وتلف حول رأسها على غير المعتاد عصابة مزركشة، إذ عادة النساء أن يضعن العصابات حال خروجهن لا عند قرارهن في البيوت. تقلب نظراتها القلقة في جنبات الطريق الخالي من البشر. لقد صُليت العشاء وأغلقت الجوامع أبوابها، وحتى الآن لم يبدُ طيف زوجها الهادي عدنان، ولا حتى ابنها؛ يونس. ولقد زاد من قلقها ما أخبرته به ابنتها مباركة من اعتزام أبيها وسليم السير إلى إدفو.

اتخذت مباركة لنفسها مجلسًا داخل البيت، بالقرب من أمها، كانت قد أثنت ركبتيها وأدخلت الساقين في بعضهما بعد أن استقر مقعدها على الأرض واستوى. ولم تكن هي لتهتم بردائها الأسود الفضفاض والذي هطل حول مجلسها كجبل خاشع، وقد تعلقت به بقع تراب الطريق الذي قطعته مهرولة مذعورة إلى بيت أبيها، وانهمر الدمع من عينيها أنهارًا لا تتوقف.

بدا شبحٌ في الدرب. مسرعًا يشق جنح الظلام الذي تسللت بين جنباته أنوار قناديل الدرب الخافتة. ينخلع قلب إشراق ظانّة أنه أحد الغائبين المنتظرين فتهم بالنهوض، غير أنها سرعان ما تعود إلى جلستها السابقة بعدما يتأكد لديها أن الشبح المارق لرجل من أصفون يتلمس الطريق إلى منزله في هذه الليلة الباردة. فعلت ذلك أكثر من مرة، وفي أوقات الانتظار كانت تغمغم بكلمات تهز كيانها المبعثر بفعل الخبر:

يا عيد عَيَّدْ على الجيران وامشـي .. احنا الحزانى ولا نعيدشـي

يا عيد عَيَّدْ على الجيـران ورُوح .. احنا الحزانى وقلبنا مجـروح

وفي غمرة من الغياب عن دنيا البشر، والغوص في بحور الأحزان، وذكريات الماضي الأليم، يظهر الهادي وسليم. ما إن يقفا على باب البيت ويتبادلان نظرات ذات مغزى حتى ترتسم عليهما بسمتان فيهما من الحنان ما يفوق السخرية. ونسيا كل الغضب الذي تلبسهما منذ جلسة الأجواد، وتركا كل همٍ خلّفه حوارهما معًا في ظلال بستان الهادي عن التدبير للأيام القادمة.

"قلت لك يا سليم. مباركة لن تقوى على كتمان الأمر الجلل في صدرها. وستهرع إلى أمها ملقية بين يديها ودائع حديثك إليها. الصبر مر يا ولدي".

وكأن قولة الهادي هذه هي التي انتشلت المرأتين من عالميهما وجمعت شتات جسديهما فانتفضتا واقفتين، وصاحت إشراق بنبرةٍ؛ حنانها يفوق غضبها: **أو تعلم الغيب يا هادي حتى تخبره بإطلاع بنتي لي على الأمر؟!**

اقترب الهادي نحوها وقال في رقة؛ أمارتها ابتسامة خفيفة، وهو يضم أصابع يده اليمنى إلى بعضها ويهزها في رفق كلما خرجت من فيه كلمة:

بل إني لخبير بطبع مباركة، وأم مباركة؛ كلاكما طيبتا القلب، رقيقتا المعشر.

لكن كلمات الغزل كلها لم تعد كافية أن تزيح عن إشراق هم الساعات الطوال وهي ترقب الطريق؛ ترصد القادمين وتقلب وجوه السائرين. امتلأت جوانحها حزنًا ففاض إلى العينين المجهدتين فسال نهران يتسربلان بالصمت، ثم هتفت بزوجها راجيةً:

أو مسيرة ثلاثين عامًا من العمر والعيش والملح تحت سقف واحد – يا هادي – لا تعوزك لأن تقص عليّ القصص وتطلعني على العزم والمقصد إلا قبل الرحيل بليلة؟!

قال الهادي مستعطفًا: **يا أم مباركة هوني عليكِ الأمر.**

نفرت محتدة: **ويونس... لم يعد حتى الآن. أين يونس يا هادي؟!**

رد الهادي: **يمم وجهه منذ الظهر صوب صحراء غرب أصفون يمرن فرسه الذي رانت عليه جُدُر الكسل. سيعود قريبًا ليستريح حتى يستعد للغد.**

وجزعت حينها إشراق. ولولت: **ولدي. ابن بطني. ستأخذونه معكم. وأبقى هنا أنا والمسكينة مباركة.**

الهادي تضجر قليلًا. تحول بجسده عنها بعدما كان مقبلًا عليها. أسند يده إلى الجدار بعدما تجاوز عتبة الدار. وجّه حديثه إلى مباركة وكأنه ينهرها:

وأنتِ كفكفي دموعك. هيا اذهبي مع زوجك، واعتنِ ببيتك.

***

عينا إشراق الضيقتان كانتا على وشك أن تهطل منهما أنهار دمع. بؤبؤ عينها كأنه يأنّ، وهي زائغة تائهة. تضرب برجليها من غرفة إلى غرفة في الدار، ولا تقرّ أبدًا في موضع. ثوبها الفضفاض يسرح خلفها كأنما قد أجهده الوجع. منذ قليل عاد يونس فسكن قلبها ثم لما آوت في النهاية إلى غرفتها، وكان الهادي ممدًا جسده على الشوار، عادت إلى الاضطراب مرة أخرى. ذلك الوجه الأسمر الوضاء، والقامة القصيرة، والجسد الممتلئ، والطيبة التي تنبعث منها بلا حد. انتحت جانبًا. ظنت أن الهادي قد أخلد إلى النوم بعد عناء يوم طويل؛ فجلست على الأرض. في بقعة

الضوء الخافتة لاحت منها شهقة على حين غفلة. انتبه الهادي فوجدها تمسح بطرف ثوبها على تقاطيع خديها المبتلة.

قام ومشى إليها ووضع كفًا على كتفها برفق فنظرت إليه شاهقةً. بحنو خاطبها:

تبكين يا إشراق. ما فائدة البكا الحين؟! ألم يرجع إليك ولدك سالمًا، ورأيتِه بنفسك، وتحدثتِ إليه؟!

وهي تمحو دمعة هاطلةً على خدها قالت:

وغدًا من يبعث في قلبي الأمان، ويهبني السكينة؟! هكذا يا هادي، على غرة ومن غير ميعاد تفعل فعلتك. الله وحده يعلم ما ألمّ بي منذ عرفت الخبر من مباركة. حتى الآن لا أقدر على التحكم في جسدي. روحي معلقة، وأنفاسي متلاحقة. وأنت غاضب من الألم الذي يكوينا، وتنهر ابنتك، وتستكثر عليّ أن أبكي وأنتحب وتقول: ما فائدة البكا؟!

تنهد الهادي. عمد إلى كرسي فأمسك من عليه طاقية بيضاء ووضعها على رأسه. أنار مصباح زيت آخر فضجت الغرفة بالأنوار. ثم عاد وجلس على الشوار. ونادى على إشراق فأتت إليه وهي تقاوم كَلْمها. أجلسها بجواره:

الأمر أكبر مني يا إشراق. تلك نارٌ تحرق الجوى. وأنت تعرفين أنها نار صفو لا مطامع فيها. لا أستطيع الفكاك منها، ولن أحاول أن أفعل. لأن ما نحن عليه هو الحق. لا بل إن الذي عليه أنا هو الحق. أو تظنين أن مطامع المزدية والعمارية وآل خليفة خافية عني؟! حتى

شيخ الدورية؛ الفضل الشيخ الكبير ذي الشيبة والعيبة؛ أعرف لم هو منضم إلينا؛ يكيد لأعدائه من المزدية ويريد أن يرد إليهم الصاع القديم صاعين. لكن أنا ما يضيرني لو أنّ المنافقين في دربي وأنا المخلص الوحيد؟

بصدقٍ حكى لها ما يوجعه وما يهمه. بغير دموعٍ سرَد، وهي أحسّت بكل شيء. أفردت لرفيق دربها وسندها ذراعها، وكان عتبها قد انتهى. وبان عليها عطف وحنان من بعد أسى ورهق. أرادت أكثر من مرة أن تقاطعه وتقول: فداك روحي. فداك كل ما أملك. لكن سيل الحكايات التي بدأ روايتها منعها من ذلك. لم يكن فيما يقوله جديدًا عليها. الجديد فعلًا هو صوته المبحوح، وعيناه السارحتان، وذهنه المثقل. هذا ما ألبس الحكايات المكررة حلة جديدة.

أنسيتِ أبا عبد الرحمن العمري وحكايته يا إشراق؟! كان مهابًا شجاعًا نصر الله به الحق وألهمه الصواب وأخرجه من بين ركام المجهول. لم يجد الناس غيره ليرد عنهم فساد البِجَا وأذاهم في بلاد الله. هب وانتفض كالأسد وقاد جيشًا من العربان وطارد المعتدين حتى أبعدهم عن الديار وهم أولو البأس والقوة. حط برحاله في بلاد النوبة ورغب في أن يؤسس دولة. كان يقول "إن الخير بغير سلطان لا يدوم". عنده حق. كل شيء بغير سلطان لا يدوم؛ لا خير ولا جمال ولا عدل ولا أمانة. لكن حكام الشمال يومها لم يسكتوا عنه كما لم يسكتوا عنّا هذه الأيام؛ فقد استشاط سيد القطائع آنذاك. أرسل له ابن طولون جيشًا وأمّر عليه قائدًا كبير الشأن. ولما التقى الجيشان قال أبو عبد الرحمن: ما خرجنا إلا رادّين للطغيان والظلم وغيرةً على حرمات المسلمين وأهالي نواحينا. رد قائد الجيش: لا

سلطان يتعدد وابن طولون على الأرض حي يرزق. استنكر أبو عبد الرحمن: لماذا؟! ما الضير طالما أن الخير سيعم؟! قال قائد الجيش مبينًا السبيل: أتريد أن يعم الخير ويفيض ويفتتن الناس بك ويلتفون من حولك وينفضون عن صاحب البيعة؟! سنحتكم إلى القتال.

هُزم جند ابن طولون ولما بلغه الخبر بالقطائع قال لجنده: إنما غلبوكم ببغيكم.

شيبتي تؤرقني يا أم يونس. شعر الرأس الذي انمحى والعمامة الضخمة، واللحية البيضاء التي تظلل عنقي. وأيام الصبا والشباب التي ضاعت في الأسئلة واليوم أخشى أن أفارق دونما وصول إلى نقطة المعنى. منذ صغري وأنا هكذا؛ مطارِدٌ في الوديان والفيافي. الفرح لحظات، لكن الآلام في حيواتنا طويلة وكأنها أعمار قوم نوح. مهما قطعنا من مسافات كي نظفر بتجليات النور فإن الكون ما زال بالنسبة إلينا غامض، ولا متناهٍ؛ كون أرواحنا وأنفسنا لا كون الموجودات التي تحوطنا.

طفت بالوادي كله. وزرت القاهرة العامرة في عمري مرتين. مشيت في حواريها ودققت في أفعال ناسها ومسالك صناعها. أفزعني ركب مماليك كانوا يجوسون خلال البيوت ينهبون ما تقع عليه أيديهم ويبثون الفوضى. وقال بعض ناس: ما هكذا تفعل الجامكيات المؤجلة بالبشر. وصرخ آخرون: ارحمنا يا رب. عم الذعر في وجوه الكل. والنسوة أطللن من نوافذ المشربيات يطلقن صيحات الكرب. على الأرض المبلطة بالحجارة المكعبة دقت أصوات مراكيب مماليك آخرين يمدون إخوانهم في البغي والجور. ودوى التكبير من فوق المآذن

في غير أوقات الصلاة يعلن الخطر. أغلقت دكاكين التجار والصاغة والحرفيين وهجع الهواء العليل الذي كان يتسلل بين الدروب الضيقة. سألت نفسي وأنا أختبئ في زكيبة فرغها حمالها منذ قليل من كومة بصل: لمَ يصمت الناس هنا على هؤلاء؟! خسارة في الأرزاق وقلة في الاعتبار. كيف يسمحوا للهمج أن يفسدوا جمالًا هم صانعوه؟

وأصحاب البلاد؟ أين أصحاب البلاد؟

سكنت فيّ الأسئلة. هاجت واعتملت فما أعلنتها لأحد. ثم دار العمر بي. وسافرت إلى بلاد النوبة وإلى ما أبعد من ذلك. رأيت منابع النيل وغصت بأم عيني في مجاهل تلك البلاد وأدغالها. أبصرت تماسيح ضخمة، يخافها البشر بينما يرافقها الذباب. الناس هناك يسلمون وجوههم للشمس تلفحهم وهم صامتون. صبَغَتهم بالسواد وصاروا لها عبيدًا. في الخلاء هم يعيشون ولا يسترون أجسادهم إلا بخرق يلفونها على خصورهم. يأكلون من الأشجار ويطاردون الغزلان ويلتفون على الأسود والضواري بحيل عجيبة ابتكروها. يأتون نساءهم متى شاءوا ولهم في ذلك قوى جبارة. لا يستحون ولا ينكسفون عن الأعين. أيقنت أن عيشتهم لا يألفها من ليس منهم وأنهم إلى بوار. هجم على البلدة يومًا طاعون ففررت منه وبقوا هم. مجانين ظنوه كالشمس آخرها أن تحرق جلودهم ولا تمسهم بهلاك. جريت فوق سيقان الحشائش وأجسادٌ من خلفي يلقيها الموت على الأرض فكأنما تُنسف جبال.

امتد العمر وعاشرت أقوامًا وأقوامًا. وعشت في ذلك العهد الذي سمعت فيه أساطير المصريين التي تقول بأن ساعةً من الليل تأتي لتسكن فيها مياه النيل. وأن من يشرب منه في تلك الساعة يورثه الله قوة العفاريت والمردة، وتُهيأ له الخوارق والأسباب. ولما ظهر الأحدب نادى من بينهم منادٍ أن البشري الممسوس الذي شرب من ماء النيل الساكن تحت ظلمة الليل قد ظهر.

في صعيد مصر هاج الناس وماجوا. وتنشّق في العربان أملٌ قديم كان الظاهر بيبرس قد أراق دمه لما قتل حصن الدين ثعلب الجعفري في محبسه بالإسكندرية. وكان حصن قد جمع العربان من حوله ونادى: نحن أصحاب البلد. احتشدوا من حوله، ولما أيقن المماليك بأن الهلكة في اللقاء بعثوا من عقد صلحًا. تم لهم ما أرادوا، وغدروا بعد الصلح وإغماد السيوف. واقتادوا حصن الدين إلى سجن بالثغر ثم قتلوه. هام العربان وكتموا في دواخلهم أحزانًا لا تنتهي.

أنا؛ نُقل إليّ الكلام عن الأجداد. لسان يحكيه عن لسان، وقلبٌ ورثه من قلب. وعيته، وحفظته مسطورًا بمداد الحياة بين ضلوعي. مزجته بالمشاهدات والتساؤلات التي سطعت فيّ منذ أمد، وما قلت بمقالة المصريين، قلت: الأحدب ليس ممسوسًا شرب من النيل الساكن فازدادت شجاعته، أو عظمت قوته، بل هو جذوة الأمل الباقية في قلب كل عربي.

ألم أقل لكِ أن الأمر أكبر مني. إنه يتجاوز عمري وأعمار من كانوا قبلي. أعرفتِ سبب شَيْطي وتعكر مزاجي؟! ثم أنتم من يا إشراق؟

ألستم زينة عمري، وأهلي، ومن ستكملون الطريق إذا ما بترنا عن الوجود باتر.

انتفضت من مكانها لما نط ذكر الموت في الكلام وقالت متلهفة: **فأل الله ولا فألك يا حاج. مردودة على أعدائك.**

ثم عاد الحديث مرة أخرى عن يونس. أبدت عليه إشراق جزعًا ملأ عينيها. غمرتها رعشة من حزن الغريزة المخلوقة فيها. لكنّ الهادي أخذها في حضنه بعدما أطفأ القنديلين وأغلق النافذة على بدر غارق في البرد. رغب في أن يثبت لها أن حبل الإخلاص لن ينقطع أبدًا، وأن الراحلين سيخلفهم رجال ولو أتوا في ليالي الحزن والجزع.



لا يريد الليل أن يرحل. خطاه ثقيلة جدًا وهو يسير نحو الفجر؛ كأنه لا يرغبه، وكأن لفحات البرد تزحزح مراكبه نحو شطآن الضياء ولا تفلح.

كان القلق وقتها قد استبد بالفتى يونس بن الهادي عدنان وهو في مخدعه؛ إذ مدد جسده النحيف على الشوار. قضى يومًا طويلًا في تدريب الفرس الذي اعتاد الراحة. نال منه التعب، وتلك الغرفة خاليةٌ من البشر إلا من دونه؛ فأخذ يحاور نفسه. بعث إلى السقف نظرات متقطعة. عيناه العسليتان كانتا تعانيان الزيغ. تمنى أن لو يغلب حركة رمشيه فيوقفهما وينام. كان للشوار طقطقة من تحته وهو يتقلب عليه من جنبٍ إلى جنب. نظر مرةً أخرى إلى السقف فبدا له من وراء عروق

السنط الممددة بعرض الغرفة نورُها؛ وجهها صافٍ وله وضاءة كالبدر الذي غازلته نجوم السماء في ليلة مجلوة. عيناها الحوراءين، ورمشاها القابعين في سكينة ورضا. ابتسمت فتلألأ فيها ذلك الثغر الذي هذبته ملازمة السواك فتمنى أن لو صيّره الله عود أراكٍ في يدها. رآها وبعض قطرات عرق ندت على جبينها وهي تعافر مع أثواب صوفية مغمورة بالماء في طشت نحاس.

التقى القلبان منذ زمنٍ بعيد. من الصبا؛ اصطحبا في رفقة حب لا يعرف الكدر. حبهما ظل صامتًا. لا لغة تطيقه اللهم إلا نظرات ملآنة بالبراءة. نظرات لا تبصر مفاتن جسد أو تغازل في السر مواضع غرائز. كانت بالقلوب لا بالعيون فلم تبصر سوى العفاف والطهر.

ويوم أن سأل نفسه: لم أنا اخترتها؟ وكيف من دون كل البنات اصطفاها قلبي؟! انتقيتُ من لم أعاشره أو أحققه! فصاح في لهفة المحب المبصر؛ وكيف لم أحقق طاهرة؟! وهل تغيب عن المرء روحه التي يحيا بها، وما أنا قبلها إلا مخلوقٌ ينقصه الكثير؛ الأمان، الرقة، وكل الحياة! كيف لم أحققها. كيف؟! ألم يكن صديقي سليمان الذي مات في هوجة الموت الأسود، منذ أعوامٍ قليلة، أخوها؛ شقيقها الذي يأخذ من طبعها أو تأخذ هي من طبعه ما تُعرَّف به طيبة القلب ونقاء الباطن؟! كان الموتُ أقوى من إقدامك يا سليمان. لم يفرق بين رجل أو حرمة أو صغير، ولم تعد تفرق معه بسمتك ولا غضبتك في الحق. كان منجلًا يحصد أرواح الناس بلا توقف. ليت بكائي قد نفعك يا سليمان. كنت أبكيك بشدة، وأشهق ويعلو نحيبي. ظللت قريبًا من الساعة كالمجنون، ثم هدأتُ ليخلفك فيّ حزنٌ أبدي. لا أعرف حتى اليوم لم

التقطك الموت أنت بالذات من بيننا! لم استأثر بك دوني؟ لعله أراد أن أبرّك في أختك. كيف لا أعرف طاهرة، وقد صارت لي أقرب من كل شيء، حتى من نفسي. والله يعلم بحالي.

تنهد يونس بلهفة. قال كأنه يجدد العهد أمام نفسه؛ إني بحق الله على كل البشر أريدها بكل معاني الانفراد والاستئثار والاحتكار. رفيقة الدرب في الدنيا وسيدةً على الحور العين في الآخرة. بلغنيها يا رب.

تقلب على جنبه الأيمن. في الخارج ثار صفير مخيف. من بعيد عوى ذئب، فهمس يونس؛ ولكن كيف الغد بدوني يا طاهرة؟! أرحل إلى سليمان؛ فماذا تفعلين؟! إني أفر إلى حيث القوم لأجلك أنتِ، ولأجل كل نساء هذا الحي من العربان. لا أقر هنا فيتلطخ سيري بجبن لا ترتضينه لي ولا أرضاه لنفسي. أفر إلى الأحدب كي أستعيد حياةً تكونين فيها السيدة كما تستحقين، وأكون فيها أنا السيد الذي يحكم ولا يُحكَم.

لكن كيف الغد بدوني يا طاهرة؟ إن لم أعد، فماذا تفعلين.



ما زال الظلام المبقع بأنوار القناديل مخيمًا على الآفاق. المدينة التي كانت صاخبةً منذ ساعة تميل إلى الهمس والدعة. جميع الناس قد غادروا الطرقات ولاذوا بدورهم اتقاءً من البرد الذي سطا. الحصى المغروس بين طيات تراب الأزقة، الخشب الذي عُملت منه الدكك المفرقة على النواصي، أوراق الشجر التي جفت، ومياه النيل التي بانت أمواجها كمنمنمات مظلمة كثيرًا؛ خُيلت مناظرها على أنها ترتعش ذعرًا من موجة الصقيع الحاد. أما الشيخ فقد التفع جبته الصوف. هو الوحيد الذي بدا قادرًا على الحركة في هذا الجو. ارتسم بعمامة ترك عليها غبار النهار آثاره، لا يملك سواها فأنهكها لفًا وارتداءً، ثم غطاها بطيلسان له من حالها نصيب.

طويلٌ هو، وله وجه يميل إلى الاستطالة. عيناه نظراتهما حادة، ومن فوقهما سيفان بتاران. أنفه مارن عريض من الأسفل، وفمه محاط من ناحية كل خدٍ بغمازة؛ ظهر ذلك جليًا لما عمد إلى عصاه الملقاة على الجدار فالتقطها. أتعبته حتى جز أسنانه وشد شفتيه وهو يرفع قامته عليها. لحية قصيرة كانت قد انسدلت من ذقنه، لكن مجمل مظهره ينم عن مسحةٍ من يسر حال قد ولت أيامه.

اتكأ على عصاه. شق الطرقات بتؤدة حتى وصل إلى أطراف المدينة من جهة الغرب، فوقف. دار إلى خلفه وألقى نظرة الرحيل على إسنا. جال ببصره بين الدور التي ظهرت كمخادع يتيمة وسط الظلمة والبرد. دقق النظر صوب مئذنة جامع البلدة العتيق. تذكر جلسات الذكر والدرس التي كان يترأسها أبوه؛ أيام أن كانت ترسله أمه بالزاد إلى أبيه ومن معه. ذلك الألم الذي كان يصيب مقعدته ورجليه من كثرة

الجلوس على حصر الجامع منتظرًا فراغ والده من درس فقه لتلاميذه، أو حلقة ذكر لمريديه؛ كأنه سرى فيه الآن مرةً أخرى بعد كل هذه السنين. أبوه هائم في ملكوت الله الواسع وهو يصيبه الملل من كل طريق. ينصب جسده ويتجه خارج الجامع باحثًا عن صبية يلعبون. وبعد العشاء بكثير زمن يعود مع أبيه بعد أن يفرغ من اللعب والجري. يسأله أبوه: ماذا أدركت اليوم؟ فيخبره بضجره وملله الجلوس، وما كان من أمر اللهو. يقول الأب: متى تدرك يا ولدي أن ما هو قادمٌ ليس كالذي فات؟! وأن ما تحياه الآن ربما عدمته في الغد!

ليتني كنت قد أدركت منذ ذلك الوقت يا أبي. ليتني عرفت من حينها أن الدنيا لا تعطي إلا لتأخذ، وأنها ما كانت تدوم لي بك وبأمي حتى تسلبكما مني. ليتني أدركت دون أن أخوض في العذاب. هكذا قال في سره ثم أردف في علن: أستودعك الله يا إسنا. أستودع فيك كل شيء؛ مدارسك، حماماتك، أسواقك، وقناديل الليل البهيم. أستودع الوحدة المليئة بالصخب، وحياة الناس المحاطة بأسوار العزلة.

دار مرةً أخرى إلى الغرب، وبدأ رحلة اعتادها بين الحين والآخر.



المماليــــك

في هذه الآونة كانت الأمور في القاهرة سيئة إلى أبعد حد؛ فقد خُلع السلطان حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون منذ يومين.

قصر الأمير طاز

فجر الاثنين ٢٨ من جمادي الآخرة سنة ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ مـ

ها هو النوم يبعد عن جفنيك أميالًا وأميالًا، ويصول الصحو في جسدك كأقوى فرس في معمعةٍ دائرة. تتسع حدقتا عينيك لا هربًا من ظلام القاعة الذي يشقه خيط ضوء من شمعة ضخمة في ركنٍ قصيّ، بل تتسعا انتظارًا لما يحمله الغد. آهٍ من الغد، وتقلبات الغد، وخُطَبِ الغد.

وأنت جالس الآن في قصرك يا طاز. قصرك الذي صرت تتباهى به على الأمراء دونك. لكنه لا يمثل في ذاته قيمةً عظمى لك بالمقارنة مع القلعة، وقاعاتها. جناح الحرملك هنا أم دور الحريم هناك؟! صحن القصر أم صحون وأروقة القلعة؟! ذلك الفناء الغنّاء هنا، والمحاط بشبابيك الحريم المصنوعة من الخشب البغدادلي في أغرب صنعة، أم بساتين القلعة التي تزهر في الهواء الطلق ترقبها أعين الجواري الحسان؟! القلعة بلا شك؛ صوت بداخلك يردد، ويتبع بالقول؛ حتى لواحق القلعة وتوابعها وإسطبل الخيل السلطاني فيها. تلك هي حسبة الأبنية والأحجار، أما عن القَدْر فإنك قد رضيت بمقامك هنا وعددته أفضل مئة مرة من مقام السلطنة! لا أحد يدري ما بال الأمراء الذين خلعوا سلاطين ليتولوا هم الحكم بأنفسهم. أي حمق امتازوا به! ما كان يضيرهم لو ظلوا بعيدين عن ذلك الكرسي الذي تنسج من حوله

الخيوط والمكائد وتقاد إليه حوافر الخيل والسيوف. بلهاء ماتوا مقتولين مخلوعين، ولو عقلوا لعاشوا أعظم من السلاطين؛ يحركونهم أينما شاءوا ويعزلونهم متى أرادوا.

وأنت هنا يا طاز تقف على غاية الحد ونهاية الممكن لتنفذ منهما إلى القدر اللامتناهي من العبث في أمور السلطنة والحكم. لكنْ؛ كله من وراء حجاب. منذ يومين قررت أن يذهب السلطان حسن إلى دور الحريم. صبيٌ صغير هو لكنه أهمّك وأفزعك ونبهك إلى ما فيه من بأس، وغيرك من الأمراء نائمون في العسل. ألم يذكرك حسن بسيرة واحد من بني قلاوون السابقين؟! ها. أئنك تتحاشى تخيل طيف سيرته! لكن كيف تمنعه عنك وإلاه ما خلعت حسن؟! نعم هو الأشرف خليل، والذي حاول التمثل به ابن أخيه المظفر حاجّي بن الناصر محمد. كلاهما قتلته الأمراء. لكن حسن غيرهما؛ إنه الصورة الصافية من ذلك النوع من السلاطين الذي تخشاه الأمراء وتكاد العامة أن تجتمع عليه. آخركم معه العزل، وهيهات أن تمسوه بسوء. كل ليلة يقبع خلف شباك في دور الحريم يظل حتى الفجر يسأل أمه وهو باكٍ: ألست ابن الناصر محمد وجدي قلاوون؟! وأنا أحق إخوتي بالملك والسلطنة؟ من يولون غيري إذًا؟!

أزعجتك السيرة، وقمت تتجول في قصرك. ذهبت إلى الإيوان الشمالي؛ مربعٌ وله سقفٌ بزخارف هندسية وأخرى فيها رسومات نباتات. مكتوب في أحد الجوانب؛ **بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المكان المبارك السعيد من فضل الله الكريم وكل عطائه العميم المقر الأشرف العالي المولوي المخدومي الغازي المجاهدي المرابطي**

سيف الدين طاز بن قطغاج. وقفتَ تتأمل المكتوب، ودار في ذهنك تراتيب تنصيب صالح بن الناصر محمد سلطانًا على البلاد. مذ وطأتْ قدماك أرض السياسة وأنت توقن بألا جدوى من أي أمر لا يسبقه ترتيب. لا جدوى من خطب مرتجلة، أو آراء مبعثرة. في ماضيك القريب وقبل أن ينعقد مجلس مشورتك كنت حريصًا على الاختلاء برجالك واحدًا واحدًا. تلقي على مسامع كل منهم ما يناسبه وما يضبط حاله معك. من يرغب في عطية أقطعته، ومن لا يرعوي إلا بترهيب زجرته وأخفته، وكنت تقول لنفسك: رجل الدولة بحق لا يعمل على حجر الكلمات أو قمعها. بل يضبطها لصالحه قبل أن تفارق ركابها الألسنة.

وكمثل الليالي الخوالي قضيت ليلتك هذه يا طاز. ذهبتَ للأمراء في دورهم، تجاذبت معهم أطراف الحديث، قضيت وقتًا طويلًا تهيئ الأمير مُغلطاي "المتردد" للأمر، أما كلماتك مع مَنكلي بُغا فكانت جافة، جامدة، مدارها ظاهرًا وخفية مقدارُ المصالح المتبادلة في المستقبل القريب تحت ظل السلطان الجديد، تحكمها المسافات بين كل منكما ونقطة المكانة المأمولة المعبرة عن الظفر المنفرد.

في طريقك عرّجت على صرغتمش الناصري، وملكتمر المحمدي، وقردم الحموي، وهم أقرب الأمراء إليك وأوثقهم بحزبك.. حتى مماليك بَيْبُغا أُرُس ومَنْجَك اليوسفي رتّبت معهم كيف ستسير الأمور، وهم أعطوك العهد طمعًا في إطلاق سراح أميريهما المحبوسين في ثغر الإسكندرية. وبقي في مهمتك القضاة، وعلماء الدين، وأرباب المصالح والوجهاء. وهؤلاء جميعًا أرسلت إليهم، ها هنا؛ في قصرك المشيد، الرحب، أطْعمْتَهُم، ثم امتدت أياديهم نحو مطايب الشراب والفواكه

وعقولهم ترضخ لأوامرك. بثثت في روعهم أن الخوف كل الخوف على حال الديار ووضع العباد. قلت لهم: **القاهرة لا تقدر على ليلة أخرى بدون سلطان يحكمها، ولن يحمي الناس من الفوضى إذا انفلتت أحد.** ولم تجد منهم سوى الاذعان فأردفت: **في الصبح لا بد أن نؤمّن جميعًا في نفس واحد على تولي صالح بن الناصر محمد خلفًا لحسن المخلوع؛ فهذا أدعى لقرار الأمن وبسط قوة الدولة على كل أركانها.** صار هذا الكلام منذ ساعة، وابتسامة واثقة يخالجها بعض الخوف تعلو ثغرك.

وصلتَ أخيرًا إلى باب جانبي؛ يقع بجوار باب السر المخفي عن العيون، وسط هذه السباحة العنيفة مع الأفكار. أبعدت الحراس عنه وفتحته بنفسك وأطللت لبرهة على حارة الشيخ خليل ولم تجد سوى الظلام المنقشع بنور خفيف، والدخان. تذكرت الخليفة العباسي أحمد بن المستكفي أبي الربيع سليمان. تطلق ضحكة مكتومة، ويبدو في ذهنك ما آل إليه شأنه، بل وشأن خلفاء بني العباس جميعًا منذ أن تقوضت دولتهم وذهب ملكهم، وآواهم الترك في مصر. تذكر ذلك فتنتشي في نفسك وتصرخ: "آويناهم إذ هم بذرة حياتنا، وخروجنا للنور بعد أن أسلم بنو أمية الأمر كله للعرب دون غيرهم، ضاربين عمومية الدين والحكم في مقتل". ثم تذهب عنك النشوة وتهمس في جدران جوانحك بخبث: "لكنّ بني العباس أيضًا أطلقوا يد العجم، وحرموا العرب من كل شيء، حتى من العطايا والإقطاعات". لقد انتهت دولة العباسيين منذ أن خرّب المغول حاضرتهم، زهرة الدنيا في حينها، وجميلة المدائن؛ بغداد، صاحبة النهرين. واليوم صار الخليفة العباسي

لا يملك من الخلافة إلا الاسم؛ مجرد الاسم فحسب. ها أنت ذا تحرر نفسك من قيود الإجهاد ولا تذهب للخليفة أحمد إذ أنك لست مضطرًا إلى ذلك، لا لبيان شيء، أو شرح أمر ففي الصباح سيذعن الخليفة لمرادك الخفي كما الآخرون.

تدلف مرةً أخرى إلى القصر بعدما يُعطّل نشاطَ عقلك نباحُ كلب على أول السكة. تقف في منتصف صحن القصر، ثم تسير رويدًا حتى تصل إلى عمود من الرخام فتسند ذراعك إليه وتنظر إلى تاجه الكورنثي. العمود سامقٌ مثل قامتك المديدة. وجهك الحسن يلتمع في ضياء القناديل والمشكاوات المعلقة في كل جانب. عيناك تبرزان بشدة ويلوح في خيالك مرة أخرى طيف السلطنة من وراء حجاب.



وفي الرحبة الكائنة داخل باب النحاس في قلعة الجبل؛ توالى قدوم الأمراء، والقضاة الأربعة، وعلماء الدين، وأصحاب المصالح، والوجهاء. وبعد أن استقام جلوس هؤلاء أتى الخليفة العباسي أحمد متبخترًا في ثيابه الملونة، ريشة طويلة متينة تعتلي عمامته المزركشة التي يتدلى منها نسر مذهب. قام الجميع اجلالًا لمقام الخلافة. لا بل لمقام الاسم فحسب. ثم لم تزد أحاديثهم عن همسات. كانوا يبحثون علنًا عن مواضع الأمان في بحر الاعتبارات المتضاربة؛ مصالح أبناء الناصر محمد بن قلاوون وحريمه، ومصالح الأمراء الكبار، ومصالح كبار التجار، وإقطاعات القضاة والعلماء، أما مصالح العامة! آهٍ من هؤلاء الذين ينامون ويصحون على الهتاف والدعاء لمن على تخت الملك أيًا كان هو. وهل للعامة من مصالح سوى أن تتحقق مصالح كل هذا الجمع من العمائم الضخمة والبطون المنتفخة! يكفيهم فقط أن تخرج المراسيم السلطانية من القلعة بإسقاط مكس أو إنهاء احتكار سلعة ما؛ كالزيت أو الملح مثلًا، وتكفيهم أيضًا الفرجة على صراع الأمراء وتقاتلهم، وخلعهم سلطانًا، وتنصيبهم آخر. مجرد الفرجة.

اكتمل مجلس المشورة، والأمير منكلي بغا ما زال مشاغبًا لا يهدأ. كان شكاكًا في كل ما يأتي من جهة الأمير طاز؛ هو يعلم مطامعه. هي ذاتها نفس مطامعه في الصبي الذي سيصير سلطانًا عما قليل، ويدرك أن طاز كفرس رهان كفته ترجح دومًا إذ يتقن نسج الخيوط وتدبير

التقائها في موضع واحد عنده. ولكم من مرةٍ عتب على رفيق دربه "مغلطاي" لمّا رأى منه انقياده وراء طاز. اليوم بعدما أيقن أن الجولة قد آلت إلى غريمه، لم تسعه سوى المشاغبة والإثارة طمعًا في مكاسب إضافية. لم تنتهِ تساؤلاته، التي رآها مشروعة، إلا عندما صاح مغلطاي قائلًا: يجب أن يضرب الأمراء القدوة والمثل للعامة في اجتماع الكلمة ووحدة الرأي، حتى إذا ما سمعوا بالخبر نزل عليهم كالجلمد يفتت كل بادرة تمرد أو تذمر. مغلطاي كان يتحدث للكل لكن منكلي فهم المراد وصمت.

أرسل الأمراء رسولًا إلى دور الحريم طالبين سلطانهم الجديد.



دور الحريم – جناح خَوَنْد قُطلُو مَلِك

في القاعة الكبرى من دور الحريم، والمخصصة لخوند قطلو ملك بنت كبير الأمراء تنكز الناصري ثبّت اللهُ الطوبةَ التي تحت رأسه في القبر ورحمه؛ كانت النوافير الصغيرة وأحواضها دائرة بين الفوران والخرير. ضحكات الجواري تقرقر في الغرف الموصدة عليهنّ فلا يخرجن إلا في وقت معلوم. ببغاءٌ هرم يحاول أن يلاحق الأصوات من حوله فأعياه اختلاطها وصار كالأبله؛ يضحك كأنه جارية وفجأة يصيح: السلطان الجديد. ينقطع باكيًا؛ أبي تنكز، أبي تنكز، وسرعان ما يغرغر كأنه فورة ماء تسقط في قاع النافورة وتترقرق.

الأمكنة هنا لا سبيل للضيق عليها. هي رحبة مديدة، ولها أبوابٌ كثيرة تستعصي على الحصر أو العدّ. ولو أن زائرًا دخل هنا دون أن يرافقه مرشد لتاه وضاع عمره في ردهاتها. المشكاوات الشفافة تتدلى من كل ركن. في الأسقف زخارف لا حد لبهائها؛ أشكال مثلثة ومربعة ومستطيلة، وأخرى كعناقيد العنب تتلاحم مع بعضها في يسر دون إرهاق للنظر. آي القرآن مخطوطة في كل جانب، وأسماء الملوك السالفين مسبوقة بمقام العبودية للواحد القهار، وألقاب الجهاد منقوشة وباقية رغم موتهم. من بعيدٍ جدًا تنسل أشعة من ضوء النهار مخترقة عبر مصنوعات خشب الأرابيسك التي في الطُوُق والمشربيات فتصنع ظلالًا من طائر يطير بجناحيه يقترب من قمر يمر في سمائه على أكمة من الشجر على الأرض. ما زال ضحك الجواري مستمرًا. هن هكذا

طيلة الوقت؛ يضحكن بسبب ومن غير سبب، ويتغامزن بما يعنّ لهن قوله على خلق الله من الطواشية المحرومين من نعيم الحياة كما يقلن هن على الدوام. لا يتوقفن عن الضحكات إلا حينما تحل قريبًا منهن كبيرتهن القهرمانة. هي سيدة وقور، تغطي رأسها بغطاء لا يظهر سوى وجهها وتلبس عباءة فضفافة، وهي دومًا مقطبة الجبين يظللها العبوس؛ لزوم الوجاهة والمكانة. سيدة جواري القلعة.

أما صالح فكان قد ألقى برأسه في حجر أمه. استبد القلق والزيغ بعينيه الزرقاوين ودارت في ذهنه خيالات الخوف اللذيذ.. طرقت عقله حيرةٌ عن قابل الأيام وكيف سيصير الأمر! ماذا يصنع عندما يصير السلطان؟! وسأل نفسه: كيف تكون النهاية يا صالح؟!

إن مشهد النهاية هو ما يشغل باله وهو بعدُ على أول السكّة التي لا يعلم سوى الله أتطول أم تقصر.

كل الخواطر تواردت على ذهنه، خواطر إلقاء أخيه حسن في دور الحريم بعد خلعه، ومن قبله ما فُعل مع أبيه العظيم، رأس هذه الأسرة الحاكمة؛ الناصر محمد بن قلاوون. قفز إلى ذهنه حكايات أمه عن عمه الأشرف خليل. **"وأما عمك الأشرف يا ولدي فكان شجاعًا مقدامًا كريمًا بالمال، منفقًا في سبيل الجهاد في سني حكمه الثلاث. هو الذي أنهى آمال الفرنج في الشرق وأجلاهم عن الشام وخاض حربًا عظيمة فتح الله فيها عليه عكا في نفس اليوم الذي سلبها الفرنج فيه! وصور التي استحالت على كل السلاطين بمن فيهم السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، سلمت له أمرها دون حرب أو تنازع، وسار إلى دمشق في موكب النصر والظفر وقد**

عُملت له القباب بالشوارع، وسيق بين يديه أسرى الفرنج أذلة صاغرين. كان الأشرف ضخمًا سمينًا، ذا جمال بديع، ولحية مستديرة، يبين على وجهه هيبة السلطنة، عنيدًا في كل أمره، وقد بلغ في عناده أنه لما ندم أبوه على ما كان من سلطنته إياه في حياته صاح في وجه القاضي فتح الدين عبد الظاهر: "يا فتح الدين. السلطان امتنع أن يعطيني. وقد أعطاني الله". هذا السلطان العظيم، والملك الفخم لم يكن على هوى الأمراء منذ بدايته، و يا ويل من لا يكون على هوى الأمراء. وقد زاد الطين بلة أنه قد استخفهم وقطع رقاب كثير منهم فاجتمعوا عليه وهو بأرض تروجة بالحمامات فقتلوه شر قتلة. ضربه نائب السلطنة بدر الدين بيدرا بالسيف فقطع يده مع كتفه، ثم هوى حسام الدين لاجين على كتفه فجَلَّها، ولما وقع الأشرف على الأرض دس الأمير بهادر – وهو رأس نوبة المماليك السلطانية – السيف في دبره حتى أطلقه من حلقه"

وعندما بلغت ذكرى الحكايات هذا المقام كان صالح يتحسس رقبته، ثم يسرع فيلمس كتفه، وبحركة عفوية يقبض عضلة دبره كأنما يقمطها برباطٍ وثيق. وتتحول اللذة إلى خوف، وتبدو منه رعشة مكتومة، وتندُّ قطرات عرق على جبينه الصافي، وكأنما هو الأشرف في "تروجة".

"لا راحة بعد اليوم يا صالح. حتى أصير الناصر محمد في رياسته. لا راحة حتى أكون الأشرف خليل في عزمه وجهاده. قد أعطاني الله".

هكذا حدّث صالح نفسه دون أن تدري به أمه؛ مَلَك التي كانت مشغولة بتسريح شعر رأسه الكثيف بأصابعها. اختارها الناصر محمد

كي تكون زوجًا له توطيدًا لعلاقته بمملوكه الأوفى؛ أبيها. أم العينين الواسعتين، وبياض البشرة الناصع، ووسامة القفجاق المعلومة. كانت تجلس سارحةً في ذكريات الماضي الذي ما بارح ذاكرتها يومًا. عقلها يرسل كتائبه في سيرة أبيها. تتذكر نائب الحضرة، والغيبة؛ الكافل، نائب السلطنة بدمشق وأمير أمراء الشام، سيف الدين تنكز بن عبد الله. تذهب إلى بلاد القفجاق حيث نشأ أبوها، ومن هناك أتى به تاجر الرقيق السيواسيّ الخواجا علاء الدين وباعه للأشرف خليل، ومن بعده صار إلى حوزة الأمير حسام الدين لاجين.

تذكر دموع أبيها وهو يشكو لمولاه الناصر ما لاقاه من إهانة من الأفرم نائب دمشق وقت أن كان الناصر محبوسًا في قلعة الكرك، والناصر محمد يطيب خاطره ويقطع على نفسه له عهدًا: **"دموعك غالية يا تنكز، لئن عدت إلى الملك لأوليّنك نيابة دمشق وأجعل بين يديك كل أمر بلاد الشام".**

أواااااه يا شام. أوااااه يا مدنها، وقراها، وعرصاتها. أين داريا اليوم؟! والزنار، وبيت لاهيا. أين عز الغوطة، والمرج. أين سعدُ القران، والسماوة. ليتني أعود إليكِ يا بقاع بعلبك، وأغدو إلى كرك نوح، ومنه إلى بيسان، وزغر. أوحشتي مَلَك يا شام، أنتِ وبيوتها، وجنائنها، وجلبة مدارسها، ووقار تربها ورُبَطِها.

تتوقف "مَلَك" عن إرسال أصابعها في شعر ولدها. تتسارع ضربات قلبها المخنوقة بفعل الذكريات، وتغالب دمعةً شاردة لمّا تذكر جلوس أبيها في دار السعادة بدمشق. يومها حضر الأمراء والقضاة وأهل الدولة، وأنشد الشاعر في النائب الجديد شعرًا لم ينمحِ من حافظة الأيام:

كم في المغاني من معانٍ أطربت

فرحًا بمقدمه ومن وروده

وتناثرت ورد الحباء حبًا لـه

لمّا يرى ذاك النهار كعيده

وماذا كانت دمشق قبل مجيء تنكز؟! لا شيء يذكر، ونيابة حلب لها السطوة والحظوة. أما بعد تنكز فقد صارت دمشق هي الظاهرة، وسيدها هو السيد على كل بلاد الشام، فلقد أعطاه الناصر سلطات التولية والعزل في جميع النيابات، وما ردّ الناصر يومًا مناشير رفعها له تنكز إلا وتوقيعه بالموافقة يزينها. والله يشهد أن أباها ما قصر يومًا في رعاية مصالح السلطان، وشؤون الرعية. ويوم أن نما إلى علمه ما فعله حاجبه "قرمجي" من مظالم بالعباد أرسل إليه ووبخه وأهانه وأنزل قدره... كل ذلك من أجل من؟! أليس من أجل الناصر؟ ومن أجل أن يظل السلطان الصالح في نظر العامة؟ ومن أجل توطيد حكم أولاده من بعده؟!

الدمعة تصير دمعات، ومقلتا "مَلَك" لم تعودا قادرتين على حبس شيء بعد؛ فتنساب العبرات قطعًا مدورة من اللهب على خديها.

أمر الشام كله بين يدي أبيها. لقد صدق الناصر وعده، وصار كل الأمراء في الشام يهابونه، حتى خاصكية الناصر في القاهرة يحسبون لتنكز ألف حساب لما رأوا من منزلته عند السلطان. أضمر الكل له

العداوة والحسد، وهو سائرٌ كما هو؛ مطمئن البال، لا يأبه لعداوة أحدهم. المهم عنده رضا الناصر وحُسن خدمته.

من يكون إذًا سلطان الشام إن لم يكن أباها؟**!**

الدينا أدوارٌ وطوابق متبدلة. من في عاليها اليوم يصير في أسفلها غدًا. ومن في قاعها الصبح يعتلي قمم الجبال ظافرًا في المساء. لا صلة في ذلك بالإخلاص وحسن الخدمة. فلا مكان للعواطف في أمور الحكم والسلطان، ولا تجوز الخدمة لأجل سواد العيون فحسب. إنما هذه خدمة ذليل الحب والمكانة لا خدمة المجتهد الحريص.

قرمجي... قـرمجي

فجأة زعق صوت ما في داخلها بهذا الاسم، فزاد تعكرها، وعلا وجهها سوادٌ صيّره كنهرٍ من لبن عكرته حوافر خيل جامحة.

نشأ قرمجي بصفد. وقيل لأبيها أنه نشأ على تقوى واعتقاد في ابن تيمية وأتباعه؛ فالتقطه تنكز وقرّبه إليه. رعاه واصطفاه، فصيّره حاجبه الخاص. ويومًا ما أرسله إلى السلطان يبلغه بالأعذار عن حضور عرس الأمير أبي بكر بن الناصر؛ فحالة بلاد الشام أضحت قلقة تحت تأثير حرائق دمشق التي دلّت الاستقصاءات أن اثني عشر كاتبًا نصرانيًا وراءها، وأن شبهات السياسة وراء الأمر. وصل قرمجي إلى السلطان، فقص عليه القصة، وأبلغه العذر، وأفاض له في الشرح. لم يكن الناصر حينها على سابق خاطره تجاه تنكز. بعض خاصكيته كانوا قد بدأوا التلميحات بالكلام عن سلطان الشام! ملأ الحقد صدورهم وصاحوا بكبرياء مصطنعة: **يا مولانا لا سلطان لنا إلا أنت الذي في**

القاهرة. ووقت أن وصل قرمجي إلى مصر كانت الوسوسة قد أثمرت شيئًا في قلب الناصر فأوعز إلى رسول تنكز إن أخبره بحقيقة حال نائب الشام ليولينه الحجوبية بالقاهرة. في لحظة تجلى فيها النقص المتدثر في صدور الرجال، وبانت من الرسول رغبة نفس في قهر أبيها الذي وبخه يومًا وأهانه على ملأ من الناس؛ أسرّ قرمجي إلى الناصر بالسر المكنون الذي أطلعه عليه تنكز. الأمانة والطمع لا يلتقيان في قلب رجل واحد، وبهرج الحجوبية ومشية الحاجب المتجبرة تجبر الفم الأخرس على النطق، والقلب المؤمن على الزيغ، فما بالنا لو كانت القلوب جاحدة غائرة ناقصة.

"إن تنكز يخشى إن قدم إليك أن تصيبه بمكروه". هذا القول من قرمجي فعل بالناصر الأفاعيل. زاد من شكوكه تجاه مملوكه الذي طغى سلطانه وفاض حتى على سلطان السلطان! لِمَ يخشى القدوم إن لم يكن مرتكبًا لجرم؟!

لكم اجتهدتَ – يومها – مَلَك في الشرح لزوجها، ولكم زادت في البيان أن أباها لا يكن للناصر سوى كل إجلالٍ وود، وأن قرمجي واشٍ من الوشاة الذين يكثرون في أروقة مجالس السلاطين وتابعيهم، وأن **"للكلام ألف دلالة ودلالة، والأعمال بالنيات لا باستنتاجات الرجال يا مولاي"**. رد عليها الناصر بوجه يقطر أسىً:

أنت لا تعرفين ما يفعله الملكُ في قلوب الرجال وعقولهم. هو أبوك لا ريب لكنه يبقى رجلًا مثل الآخرين. له قلب يتغير، وعقل يتبدل.

الحقيقة أن عمل الوشاة في الجانبين قد أينع ثمره. المحرضون على أبيها كانت قد زادت وقاحتهم، وبدلًا من التلميحات صاروا يصرحون بأقاويلهم بدل المرة الواحدة ثلاث في اليوم، أوربما يزيدون. حسين بن تمرتاش – حاكم سيواس – لا يقل خسةً عن قرمجي. كان طامعًا في ملك الشام، ولا ملك له في وجود تنكز. لا بد من إزاحة تنكز عن دمشق، وبأي وسيلة.

"يا سلطان البلاد والعباد إن تنكز يبغي التآمر عليك، والخروج عن طاعتك.. كل عيوني في دمشق رصدت حركة أموال وأسلحة مرسلة إلى قلعة جعبر. وكل الشواهد تقول أنه يترقب اللحظة المناسبة".

قولة ابن تمرتاش التي دوت في إيوان الناصر ما زالت تذكرها. كانت تترقب خلف عمود تتلوى من الوجع والغضب. هذا هو تنكز الذي كنتم تهابون ذكر اسمه بسوء أمام السلطان. صرخت في كتمان: كذبٌ هذا وإفك.

هي تذكر رد أبيها عليها يوم أن أرسلت إليه تستطلع الخبر، وما يدور في قلعة جعبر فجاءها الجواب:

"لما رأينا من تغير خاطر الناصر علينا عمدنا إلى جيغاي، وطغاي وهما من أقرب المقربين فأشارا بخبر قلعة جعبر حتى تكون ملاذًا من العسكر المصري إن قدم إلى دمشق. نحن نطلب الأمان لا الخروج عن السلطان".

خشخشة صدرها تعلو، ونحيبها يطغى على كل شيء؛ فكأنما توقفت النوافير عن الفوران، وأقلعت الجواري عن القرقرة، وقد صمتَ الببغاء الهرم في ترقب. تطلق صرخةً في فضاء القاعة الرحبة وتصيح:

"أبتااااااااه".

فيفزع صالح من على حجرها، ويعتدل في جلسته، وهي تنظر إليه في إصرار، وعينيها دامعتين كسحاب السيول. تهتف به: **"عندما تصير السلطان تنتقم لجدك تنكز من كل من وشوا به عند الناصر، من كلهم؛ من أكابر الأمراء ورجال دمشق، وجندها الذين تركوه وقَدَرهُ، حتى أولئك العربان الذين سدوا عليه طرقات دمشق فمنعوه من مبارحتها، واليوم ذووهم يطلبون حكمًا في الصعيد"**.

تدخل القهرمانة قاعة سيدتها بعد استئناس. تنظر إلى الأرض وهي بالكاد تهمس:

مولاتي. الأمراء والعلماء والقضاة والتجار ينتظرون سيدي صالح في رحبة باب النحاس.



يخرج السلطان الشاب من دور الحريم، وقد لبس خلعة السلطنة، ولفّ حول وسطه حياصة من ذهب، ووضع على رأسه كلفتاه مزركشة حزمها بتخفيفة بيضاء يتدلى من مقدمتها نسر ذهبي صغير الحجم. يتدلى من درج إلى درج. يعبر بهوًا إلى صحن، ويدلف من قاعة إلى فضاء. لا تشغله الأعمدة المنتصبة بين الأمكنة المتخالفة، القباب المُنصّفة على أشرعة البوابات، أو حركة حراس المنافذ عندما يرونه فينصبون أجسادهم ويضمون رماحهم إلى آباطهم، عن التفكير فيما هو إليه سائر. تجاوز بجسده الفتيّ كل شيء. نظر في الأسقف المزينة ونفذ منها

إلى السماء مستجلبًا الرحمة والقوة. ثم رمق الأرض بنظرة عتب وقال: **أنا ولد هذه الأرض الحبلى بالدسائس والمكائد.** هو الآن خارج القصر يزيد ضوء النهار بهاءه. أول ما حط قدمًا في ذلك الممر المودي إلى الرحبة حتى استلمه مجموعة من الطواشية يؤبّهونَه أكثر مما يحرسونه. أمه في شرفة قاعتها تطل بنظراتها المعجبة على فتاها السائر إلى تخت الملك. تنعكس أشعة الشمس البهية على خديها فيخجلان حمرةً من ضوء النهار. يشرق فيها ضوء فجر جديد، ويلتمع في وجدانها سنا برق يقشع ظلمات ليل قد طال لمّا نظرت إليه ترقب جسده القويم، ومشيته وهو الرجل الكامل بين الخِصيان. لم تدر بما يدور في خلده، وتقلب فؤاده ما بين مقامي الجد واللهو بغتة، ثقته المشوبة بالخوف أم خوفه الممزوج ببعض الثقة، أيهما يحركه ويحكم خطواته الوئيدة نحو مجلس المشورة والحلف. والفتى نفسه يذوق الأمرين. وتتقاذفه أحاسيس شتى. هي تغلبه لكن لا تقهره. ولا تربك سيره قدر خطوة.

وصل إلى الرحبة. تراجع عنه الطواشية ووقف جمع الأمراء وذوو الشأن على أرجلهم مرة واحدة. ابن الرابعة عشرة يصطف له رجال الحكم والعلم والقضاء، والخليفة، لا لشيء سوى لأنه المختار للجلوس على تخت الملك، حاكمًا للديار المصرية وتوابعها من بلاد الشام والحرمين الشريفين. ابن الرابعة عشرة هو سيد كل أولئك الأمراء الذين خاضوا بأعمارهم في بحار الزمن، وشيبت رؤوسهم مكايد السلطة ودسائس الحكم. ماذا تفعل معهم يا ابن مَلَك؟!

أحاسيس كثيرة باغتت وجدان السلطان الفتى في ذلك المجلس. هو فرحٌ متوجس. مطمئنٌ بطاز قلقٌ من غيره. وهو في النهاية لا يأمن لأميرٍ

تمام الأمان. الأمان إن وُجد فهو منقوص دومًا. وتتنازعه رغبتان؛ أما إحداهما فأن يصنع قريبًا من تاريخ الأشرف خليل. صناعةٌ على المزاج هي؛ لا تُتَبَع سُنّة بسُنّة. والأخرى فرغبة أمه في أن ينهج درب أبيها تنكز، ويزيد عليه بالانتقام ممن خانوه. لكن أنى للخيانة أن تُمنع في دنيا الخائنين! وكيف للغدر أن يقضي نحبه وقد أنظره الأمراء خالدًا بينهم إلى حين! تنشط الرغبات في صدره، فيضع يده على ما اضطرب منه وهو يتذكر نهاية الرجلين.

واحدًا يليه واحد؛ تقدم الأمراء نحو صالح. يلثم الواحد منهم كفه المرخاة بتصنع الملوك ثم يمس بها جبهته. يتحول عنه، وهو راكع، إلى التراب بين يديه فيقبله، ويمد يمناه فيضعها على مصحف مطرز ومنمقٌ جلده فيحلف للسلطان الجديد بالطاعة والولاء. وقبل أن يذهب يتجه إلى يد الخليفة الجالس على يسار السلطان ويقبلها داعيًا له: **"حفظ الله خليفة الإسلام والمسلمين"**.

وبعد أن انتهى الأمراء من مراسم الحلف وقف السلطان بين أيديهم وحلف لهم ألا يطغى على واحد منهم، ولا يسلبه عطيةً أو إقطاعًا إلا بحق الله، وحق المسلمين!

يتلقب الملك الشاب بـ "السلطان الصالح".

تتعالى الهتافات بينما تتمايل عمائم الأمراء طربًا:

أصلح الله بك الملك.

أصلح الله طريقك.

ويسر لك مرادك.

أصلح الله لك عباده وبلاده.

تمت البيعة وأشرقت في نفس الصبي شمس دنيا جديدة، واستمرت عند باقي الجمع حياتهم المعهودة. هو قد ازدانت روحه بألوان زهور البساتين الموجودة في القلعة. صار يتقلب بمزاجه في نعيمها ويرسم لنفسه جسدًا تداعبه أكفّ الجواري الرقيقة. إحداهنّ تسقيه شرابًا معسولًا، وثانيةٌ تغني بين يديه، وثالثة تتسابق مع غيرها حتى تقبل الأرض بين قدميه. لن ينام في حِجر أمه مرة أخرى؛ فهو السلطان، والسلاطين لا ينامون في حجور أمهاتهم. لا بل سيستشيرها كلما حزبه أمر أو عقدته هموم. ستنعر من أجله الطبلخاناه كلما أراد، وسيصير هو القادر على إصدار الأوامر بدق الكؤوسات متى شاء. سيعلن الحرب؛ لكنها ستكون على الأمراء قبل أن تكون على غيرهم. لا لا لا سيتكئ عليهم ويجعلهم له عصي يشتت بها بغاة التمرد في أرجاء السلطنة ثم يدور عليهم. أفٍ لهم لا يعرف معهم حلًا ولا طريقًا.

على حين غرة يعود إلى تأمل الوجوه من حوله. ينتابه سكون مفاجئ. السكون يحل مكانه ثقة تكبر رويدًا رويدًا في نفسه. نظراته ذاتها تتغير وتصير أكثر حدة. ينادي بصوت غليظ مصطنع: **ائتوا بفرس النوبة.** يقف من على كرسيه الفخيم؛ فيقف الكل. من اعوجّت عمامته منهم يقوم بضبطها كما اتفق. تُسلِم الأجواء في زوايا القلعة وما حولها القياد لهيبة دقات الكؤوسات وتنطلق مرة أخرى هتافات بعض الأمراء: **عاش السلطان الصالح. عاش الملك الصالح.**

يهرع طاز إلى لجام الفرس ليأخذ بشكيمته، فيتبعه منكلي بغا مقاسمًا إياه قبضة اللجام... غرابان متصارعان حول عصفور لا يقدر على الحراك؛ كلاهما يشده نحوه قدر جهده... ينظر الصالح نحوهما ولا يعقب، ثم يرنو بسمعه إلى أصوات الزغاريد القادمة من باحات القلعة وشرفاتها، يبهجه منظر الأمراء الواقفين على جانبيه، ومن خلفهم القضاة والعلماء، فيتملكه شعور أغرب من تلك الثقة التي بغتت صدره فجأة منذ قليل؛ شعور أن كل هذه الدولة في قبضة يدك؛ وأنت ما زلت صبيًا بعد.



وفي شوارع القاهرة وحواريها دبت حياة جديدة. بعدما سيطر القلق على الأهالي طيلة الليالي الثلاث التي مضت؛ كانت فيها القاهرة بغير سلطان.

اليوم كل الناس خارج الدور. وبرّا الحانات. ولا أحد في مجالس السمر، وقد خلت المقاهي وغرز تدخين الحشيشة من كل غاشٍ. رشوا ماء الورد بالياسمين في الطرقات. نظفوا مشكاوات المساجد وقناديل الليل ووضعوا فيها زيتًا جديدًا. الصبية أُطلقوا في الأزقة للهو بعد أن أمِن آباؤهم بطش المماليك لو كان تمردوا وسادت الفوضى. النسوة ما برحن المشربيات لحظة، لم يشبعن من الحواديت طيلة النهار عن خوند مّلّك وابنها المحظوظ الذي حملوه من دور الحريم وولوه السلطنة. إحداهن على سبيل الدعابة قالت: **خيبة علينا وعلى عيالنا السارحين**

طول الليل والنهار في الشوارع يلعبون، ويمسحون مخاط أنوفهم بأكمّامهم. الرجال قصدوا حوانيت الحجامين ليحلقوا رؤوسهم ويهذبوا لحاهم التي هُيئ لهم أنها صارت كلحى أصحاب الكهف بعد غيبتهم. حمامات القاهرة غصت بقاصديها؛ مُلئت بالرجال الراغبين في نفض الغبار والهموم، وبالبخار المتصاعد من قدور المياه الساخنة. أحاديث مفعمة بالحيوية دارت بينهم عن صراع الأمراء بين جدران القلعة. أحدهم قال مهمومًا: **سيتجدد الصراع عمّا قريب، وسنحلق رؤوسنا وننظف لحانا ونغسل بالصابون أجسادنا حالما يأذن الأمراء بسلطان جديد يمنع الفوضى أن تحل والنقمة أن تنزل. لكِ يوم عند الله مُقدّر يا قاهرة؛ تبكين فيه المماليك وتتزينين فيه لغيرهم.**

عواجيز القوم كانوا مُلقوَن على قوارع الطرق. يمددون أرجلهم أمامهم ونعالهم مخلوعة. على مقربة منهم رُبطت بغال وحمير ملأت المكان بالبعر الذي داسته أقدام. كل واحد منهم يمسك بمهشّة لا يكف عن التلويح بها على جانبي وجهه. جملة واحدة لا يُدرى من أيهم خرجت؛ لخصت تلك النظرات القميئة التي كانت تصدر منهم: **مهاطيل، وفرحانين؟!**

انجذبت الآذان من كل صوبٍ نحو أصوات المنادين:

يا أهالي القاهرة الكرام

تسلطن اليوم

الملك الصالح صالح بن الناصر محمد بن قلاوون

سليل الملوك

سلطان الإسلام

بالديار المصرية، وبلاد الشام

والمملكة الحلبية

وما والاها، والحرمين الشريفين

وكان ذلك باتفاق الأمراء والقضاة والعلماء، ورضاء خليفة المسلمين.



الأشرفية – بعد التنصيب بليلتين

ليل الأشرفية هذا المساء بدا ثقيلًا، كئيبًا، أنفاسه مزعجة. مُغلطاي يتخذ مجلسًا فوق سجادة قطيفة وثيرة لونها بنيّ، وقد تحرر من ربقة عمامته. بدا عليه أسف لا تخطئه عين. حارت عيناه وزاغتا، وعلى بعدٍ منه جلس دواداره. لقد فرغ الدوادار من محاورته العاصفة معه منذ قليل وجلس كأنما ينتظر أجلًا معلومًا. لامه أشد اللوم على ما كان فقال:

أنت مخطئ يا سيدي. يعرض عليك طاز إبعاد رفيق دربك، وأنت ترضى بذلك. وحق الله؛ ركبك العيب. وطاز يلعب لأجل صالحه. ما إن يظفر بعفو السلطان عن شيخو حتى يبعد الجميع؛ لا منكلي وحده.

لما وصل منكلي بغا كان ينفث من بين خياشيمه غضبًا وحنقًا. لقد أعلمه الدوادار بما كان. واستحثّه السير كي يجمع ما تفرق، وينقذ شريكه من شراك طاز. منكلي كما هو؛ منذ ترك مجلس المشورة والحلف. ثائرٌ بلا هوادة. وبعد أن عرف بتدبير طاز الأخير تمنى في قرارة نفسه أن لو يصير صعلوكًا يقبع في أحد مقاهي القاهرة، يشد أنفاس الحشيشة وينسى. ينسى صراعه مع طاز. وينسى صديقًا ضيعه عدم حسمه للأمور. وينسى نفسه!

لكن فجأة يصيح في وجه صاحبه والدم يكاد يفور من عروق عنقه التي نفرت من الغضب:

"يأتي طاز إلى هنا كي يتم اتفاقه معك على العفو عن شيخو. يوعز إليك بأنيّ رجلٌ فِتنّي وما دمت بينكم لا يحصل اتفاق أبدًا. يقول كل ذلك ويوسوس إليك به وتبقى أنت على استقباله، بل ومطاوعته وتحالفك معه ضدي، بل ضد نفسك! شيخو يا مغلطاي؟! شيخو: ذلك الأمير الكهل الذي خبر أمور الحكم وموازنات السياسة ولا قبل لنا به، لو خرج من سجنه فلا قائمة لنا. وأنت... أنت يا مغلطاي! ألم تسأل نفسك ولو للحظة: ماذا سيكون لك من الأمر حينها؟! وبأي وجه تنظر إليه وقد أخذت منصبه ونزلت سكنه بالأشرفية؟! سرح بك الخيال إلى أن الصبي الراقد في عرش السلطنة وأمه ومن قبلهما طاز، سيفضلونك عليه؟! ماذا سيفعلون بمراس السنين الذي امتاز به شيخو عنك إذًا؟! أفق قبل فوات الأوان"

مغلطاي اتخذ هيئة الندم، وأخذ وجهه في التقعر، وعيناه في التقلب بعيدًا عن سكة عيني جليسه. أطلق زفرة أسى وسط صمت. أوجز ورطته:

ما العمل الحين؟

احتد رمشا منكلي. تحتهما لمعت عيناه ببريق غريب. فمه الواسع لم يكن مرتعشًا وهو يتكلم؛ كان يعي كل كلمة ينطق بها:

العمل؟! الحين ليس أمامنا سوى المواجهة والقتال. القلعة لا تحتمل فريقين وصل الخلف بينهما إلى هذا الحد. في الصبح نعمد إلى من معنا من المماليك السلطانية، ونلبس عدة السلاح والحرب، وللسيوف كلمتها.

رد مغلطاي ووجهه يتفطر:

قتال؟ حرب؟ شُفْ لنا سكّة ثانية غير الضرب والطعن.

حل على منكلي غيظ مباغت. أشاح بعيدًا عن وجه مغلطاي ودار بجسده نحو الدوادار الذي كان يلتزم الصمت وزعق:

ترددك هذا هو ما أوصلنا إلى ما نحن فيه. لو وقفت جلمدًا أمام مطامع طاز لعرف ألا بد له من العيش معنا في سلام، بعد أن نتفق على أنصبتنا من كل شيء. لكنك أطمعتهم فينا بعد أن أوسعت صدرك لوسوسته بالتفريق بيننا. والحين لا سبيل لإصلاح هذا العوج والخلل إلا بالسيوف. مطامعهم تحققها السيوف، وآمالنا ننالها بالسيوف، وبالسيوف يعود ثقلنا بين المماليك في القلعة وبر مصر كله، وأنت تقول شوف لنا سكة ثانية؟! لا سكّة غيرها.

صمت الاثنان بالرضا والاتفاق. ثم شرعا في تدبير خطوات التحرك في الصباح الباكر.



لم يطلع الصبح إلا وأخبار ما دار بين مغلطاي ومنكلي بغا قد وصلت إلى أسماع طاز الذي انتشرت عيونه في قصور الأمراء جميعهم. وقد قطع بينه وبين نفسه وعدًا؛ تم التدبير، ونجحت الخطة. ابتلع الأحمقان الطعم، وسارا برجليهما إلى حتفهما المؤكد. عاجلًا غير آجل. لا فساد لترتيب ولا تردد في أمر بعد اليوم. اليوم قبل الغد، فأحوال

السلطنة لم تعد تحتمل مثل هذا الخلف. في الصعيد ثورة للعربان بدأت تصير دولةً، وفي الشام بوادر تمرد وإن لم يستبن محركوه بعد. ولا بد للقلعة من الخلاص.

أرسل طاز في طلب رجال حزبه، فحضر صرغتمش، وملكتمر، وقردم، ونوابٌ عن مماليك المسجونين: بيبغا أرس، ومنجك اليوسفي. وبينما هم يتدارسون الأمر إذ بالخبر يأتيهم أن باب دور الحريم ونحوه من أبواب القلعة قد أغلقت بأوامر من مغلطاي ومنكلي بغا، وبتنفيذ مماليك سلطانية تتبعهم!

ندب قردم: **خيانة في صفوف حرس السلطان ذاته؟!**

صاح طاز وهو يشير بسبابته: **صرغتمش عليك بباب السر. لا تدع مملوكًا أو فرسًا يخرج من الإسطبلات السلطانية.**

وفي صوت تملكه الذعر قال قردم الحموي: **والسلطان...؟!**

فأخذ ملكتمر المحمدي بلجام الجملة المرتعبة وأردف يكملها: **مع من يكون؟**

رد طاز: **اتركوا أمره لي. هو في صفنا.**

كيف كانت حواري القاهرة وأزقتها في تلك الساعة من النهار لما احتدم الأمر، كيف صنع الصعاليك بأراجيلهم المشتعلة بفتافيت الحشيش الصافي؟! هل فرّت النشوة من أعينهم المتراقصة في ذبول وأظهروا يقظة مفاجئة للمعركة المتسارعة خطواتها بين جنبات قلعة الجبل!

وحوانيت الصناع ما بالها قد ارتعبت!

مزاج العامة في هذه الساعة لم يُعثَر على وصفه. غاب أم غُيب، لا فرق. فغير مقطوع بميل معلن لهؤلاء الدهماء الذين تمتلئ بهم الشوارع والحواري إلى أي الفريقين. وأنى لهم ذلك وهم من يضجون بالدعاء لكل من يمد رجليه في إيوان السلطنة دون النظر إلى وسيلة تمكنه أو سبيل تسلقه.

أيام قلائل قضتها شوارع القاهرة في هناء. اليوم تبدل الحال وعادت إلى كآبتها. على مدخل الإسطبلات السلطانية جاءت الأوامر من السلطان نفسه باستدعاء الخيول من مخادعها وتجهيزها بآلة الحرب. السلطان مع طاز ورجاله؛ فالأخير أوعز إليه وإلى أمه أن الأمراء يدبرون لخلعه وإعادة أخيه الناصر حسن إلى السلطنة. دقت الكؤوسات معلنةً الاحتكام للسيوف، ودوت أصوات المنادين في أرجاء القاهرة بآخر مناشير حاكم البلاد:

يا أهالي القاهرة ومصر المحروسة

عليكم بمماليك المتمرد مغلطاي

والمتمرد منكلي بغا

وكل مملوك لا يقف في صف مولانا

سلطان الإسلام والمسلمين

أو يعادي جانب الأمير المبجل

طاز الناصري ومن معه

عليكم به، خذووووووه واضربوووه

بالنعال ثم إلينا فسوقوووووه

ومن يخالف أو يتستر فعليه إثمه

وهذا بيان

على الإسطبلات السلطانية كان صرغتمش سارحًا في ملكوت آخر. راودته أحلام، هو الآخر، لم تكن قد اندثرت بعد. تلقف يوم أن شراه الناصر محمد بن قلاوون بثمن كبير. ومن يومها اقترن اسمه باسم الناصر فصار يدعى "صرغتمش الناصري". هو لا ينسى تدرجه في المناصب. في البدء كان أمير جمدار؛ مسؤولًا عن ملابس السلطان وأكسيته. واليوم صار إليه أمر الطبلخاناه. ويسبق اسمه بدقات الطبول على بابه والنداء يعلو في الفضاء الفسيح:

"أمير علم، الأمير صرغتمش الناصري".

اليوم فرصة سانحة له كي يرتقي أكثر وأكثر. ضربة حظ فحسب، لكن الحظ لا يسعى إلا لمن يسعى إليه ويعرف مسالكه ويخبر خباياه. آهٍ لو يقبض بيديه هاتين على مغلطاي ومنكلي بغا. آهٍ لو يظفر بوضع الأصفاد في رسغيهما. آهٍ يا صرغتمش وآه. لو تحقق له ذلك لصار ثالث ثلاثة في إيوان السلطنة: شيخو بعد أن يخرج من كربه، وطاز، وهو.

تختمر الفكرة في عقله ويسكره تواردها فيجنح إلى قابل الأيام حيث يرى نفسه؛ هو ولا أحد سواه.

كرٌّوفر. خوفٌ ووجل. أبواب الحوانيت سُمع صريرها. الطرقات قد فرغت. كل الأحوال صارت تنذر بشر. لا حصون ولا قلاع. وجميع الأهالي وما في دورهم باتوا أهدافًا لهمجية وفوضى من سينهزمون.

دارت الرحى، واشتعلت حركة الخيول تزكيها ضربات السيوف، وطعنات الرماح، ورميات البندق والأقواس. أبواب القلعة التي غُلقت صارت تُشرَع من جديد أمام الفارين من الجحيم والحرمان المتوقع. ومن خلفهم لا تتوقف ركاب مماليك صرغتمش، تصمم على اللحاق بهم والنيل منهم.

الأرجل تتصادم في الزحام. رُكَب الرجال تصطك في بعضها ذعرًا. الدماء سالت في كل بقعة. حشرجة الأرواح في الحلوق. صرخ المماليك من الجراح، ونُصبت خيمة قتال في كل شبر. كأنه يوم الواقعة. السماء صار لونها قاتمًا. لا هواء تنتعش به الصدور. غيومٌ حجبت الشمس كلها فعادت العصافير هاجعة إلى أوكارها. نعقت من بعيد وقريب بومتان. كأنه الليل، ولا فجر. الصلوات في البيوت أقيمت، ونشطت بين الناس تمتمات بالتحصين. الأمهات أغلقن المشربيات وعمدن إلى البخور يُشبِعْن منه أركان الدور.

احرسنا يا رب من المماليك. احرسنا يا رب من المماليك.

شفاه الصبية ترتجف من الرعب بعد أن خُطفوا من لهوهم. مملوك يُقتل فيرتمي على الباب؛ فينط الصبي منهم شاهقًا ثم يبكي: **سيقتلوننا يا أبي**. لا يرد الآباء على صغارهم. فقط يصرخون في صمت: يا رب سلم.

في بعض بساتين المطرية اختبأ المتمردان بعد أن شُتت رجالهم. الأمير سنقر الأصفر التقى صرغتمش وأخبره بوجهتهما؛ فأتبعهما على عجل يقوده حلمه وأمانيه.

في غمضة عين كانت الأساور الحديدية تطوق يدي مغلطاي ومنكلي بغا. عاد صرغتمش بهما ظافرًا، وأمر السلطان فَسجنا في الإسكندرية.

غدًا يوم شيخو العمري.



القاهرة – بعد القبض على المتمردين بيومين

ماجت شوارع القاهرة وحواريها بحالة عجيبة من الهرج والمرج. صبية طوافون رفعوا أذيال أثوابهم القصيرة، ووضعوها تحت آباطهم. بعض منهم يصيح: شيخو يا شيخو، فيرد عليهم الباقون؛ تعالى. صياحهم الذي لا ينقطع ملأ الفضاء المزدحم بحركات الناس في الشوارع المجنونة.

شيخو يا شيخو، تعالى

شيخو يا شيخو، تعالى

مرةً اخرى عادت النسوة إلى المشربيات. أظهرن أعناقهن منها كأنها رؤوس أزهار تعطشت لقطرات ندى الصبح. أخذن يزغردن فجلجلت نغماتهن في الأرجاء، وما ملّت. الحشاشون تركوا مخادعهم في الأقبية المظلمة ونطوا في الطرقات حاملين أراجيلهم الملغومة وهم بنصف نشوة.

جمع من الناس قد تحلق حول رجل بين يديه ربابة. كانوا في مقهىً لا يغشاه طالبو الحشيشة على الإطلاق. المغني توقف عن الدق والنقر وبدأ يحكي:

"يُحكى أنّ. يا جالسين في المقهى. في سالف الزمان كانت هنالك شوكتان عظيمتان. تعلقان بثياب المارة. وذات يوم دب الخلف بينهما.

كان النزاع حول نصيب كل واحدة من الثياب المعطلة والأرجل المجروحة. تقاتلتا، ونتج الخراب. ومن بينهما بزغت نبتة. وبدوران الأيام عظمت وتحولت شوكة كبيرة. لتوهما فرغت الشوكتان من القتال إلى الموت والهلاك. وأضحت الشوكة الفتية متفردة بالجرح والتعطيل. وتدور الأيام دورتها. وتنحكي الحكاية في كل مقاهي القاهرة. وتُسمع الصلاة على النبي من كل مكان. يا حبايب النبي صلوا عليه".

من بعيد يُرى أثر غبار خلفته حوافر أحصنة هزيلة، عليها استوى رجال من العامة وعمائمهم المتسخة تكاد تسقط من فوق رؤوسهم. استوقفتهم عجوز كانت تقف على قارعة الطريق، وتتكئ على عصا لها تفوق جسدها طولًا.

فيم العجلة يا فتيان؟

سألتهم دون أن تعرفهم أو يعرفوها. رد أحدهم والحماسة تعلو وجهه وتميل شاربه الخفيف على شفتيه:

إلى بولاق لانتظار مركب الأمير شيخو العمري.

قبل أن يهموا بمغادرتها كانت قد شدت عودها المحدب؛ فاستوى مستقيمًا إلى أعلى. انفرجت أسارير الوجه الذي شوهته حفر الزمان المنقضي. ذراعها الذي كان مظنونًا فيه الشلل منذ قليل؛ التقف طرحة سوداء من فوق رأسها الذي شيبته الأيام، ثم لفتها حول خصرها الضامر وبدأت تأتي من حركات الرقص ما لاح بطيف ذاكرتها. كانت أفواه المارين عليها تفغر من الضحك وأياديهم لا تنفك تصفق.

إذا لم يكن للفرح من سبب فهو يقارب للجنون بصلة. وهؤلاء العامة قريبون من عالم المجانين. إذ أنهم لم يقطعوا بسببٍ لحال البهجة العارمة التي اجتاحتهم لمّا سمعوا بخبر ظفر طاز وحزبه مما يعني خروج الأمير شيخو من محبسه في الإسكندرية. ماذا فعل شيخو لأجلهم من قبل حتى يمنحوه كل هذا الاحتفال والسرور... والجنون؟! بالأمس زُج به في سجن الثغر واليوم يرمى بمغلطاي ومنكلي بغا فيه ويغادره هو، وهم لا يعلمون لمَ يتعاقب الأمر على هذا النحو! أهو الشوق المقيم إلى الأمان المسروق في دنيا مكائد الأمراء ومماليكهم؟ هذا لا يشفع لهم. أم أنه تطلعهم إلى من يبسط يده على مقاليد الأمر فيوازن بين القوى المختلة في هذه الدولة المضرجة بالدماء وأيادي الغدر. إنه لا يهمهم من يكون ذلك المنقذ. السلطان أو أحد الأمراء أو حتى لو كان أحد أجناد الحلقة أو مماليك الدكة! المهم أن يأتي من ينقذهم ويخلصهم من هذه الدائرة التي لا يتوقف دورانها على عتبات دورهم وحوانيتهم. أهو شيخو إذًا؟ ظنوا ذلك، لكن هذه الحياة المروية بالذعر وصراع السيوف الذي يمنح الحكم لمن غلب؛ من أوجدها؟ أليسوا هم!

على شاطئ بولاق لم يكن هنالك موضع لقدم؛ ضج الشط بالبشر من جميع الأعمار. الرجال انقسموا؛ قسمٌ تحلق جماعات حول مخادع السيجة الترابية، يتغامزون فيما بينهم بحكايات قلعة الجبل وما يجري فيها بين الأمراء وخاصكية السلطان الجديد. كانت همساتهم بالكلام متزامنة مع قرصات بعضهم لبعض أثناء اللعب. آخرون منهم ظللوا أعينهم بأكفهم اتقاءً لدفء شمس العصاري؛ كانوا يستطلعون مركب "الحراقة" التي تقل شيخو. النساء انعزلن عن مواضع الرجال. ثلة منهن

كن يغنين ويصفقن:

هاتوا شيخو هاتوا

هاتوه يشوف بناتوا

من بناته أولاء اللاتي ينتظرن مقدمه ويتلهف هو للقياهن؟! إنْ هي الرغبة في قول أي شيء، له أصلٌ في الواقع أو كان لا يمت للحقيقة بصلة، طالما أن الأمر متعلق برجال السلطة. رغبة العامة الأبدية في التقرب والزلفى لهؤلاء. كنّ يرددنها ثم يضحكن، وبعضهن كن يحكين في همس؛ إحداهن قالت في خفوت صوت:

في شبابه كانت طلعته بهية ولا القمر.

بادرتها أخرى: **وإلى اليوم عيني عليه باردة؛ يقولون كأن الشباب لم يغادره.**

امرأة قاربت على الخمسين؛ بان ذلك من ملامح وجهها، مصمصت شفتيها كأنها تندب حظًا بائسًا: **عيني علينا. المماليك كلهم بدور، ما خرّبهم غير الفوضى والقتال. ليسوا كالكالحين الذين يزوجوننا بهم.**

بين الرجال والنسوة كانت تسير قطارات الصبية الذين ما زالوا على هتافهم الأول. كانوا يغترفون من رمال الأرض أثناء جريهم وينثرونها بأرجلهم المتسارعة على الجالسين فيسمعونهم شتمًا وتوبيخًا، وضحكات الصبية تختلط بهمسات المخدوعين والمخدوعات.

هدرت موجة من ماء النيل على غير عادته. لونه في الشتاء يميـل إلى السواد؛ فمن فوقه حلت الحين سحبٌ كثيفة حجبت الشمس وأراحت أكف المترقبين. النيل في الشتاء لا يهب الحياة بقدر ما يهب الغموض، لكن الناس عن ذلك غافلون بقيود البطون والعطش. حال بحر النيل لم يكن بأهدأ من شطّه؛ فالمراكب التي ملأت صفحته تحمل أسرًا كاملة كانت قد حجبت رؤية المياه الجارية من تحتها. كانوا على المراكب بطبيخهم وخضرهم يأكلون ويشربون كأنهم في بيوتهم. عملوا حسابهم لهذه الساعات الطوال من التربص.

بعض الفتية كانوا قد نصبوا عروقًا خشبية كقوائم، وعلقوا بينها زينات ملونة. حان الغروب؛ فأوقدت الشموع الضخمة، ومدت أسمطة الطعام تعج بالبيض والفجل والخبز

والعسل.

هدأ ضجيج هذه البقعة من الأرض ساعة زمن فحسب؛ امتلأت البطون، واستعد القوم للسماع. وأخذوا يرشفون من أكواب البن، والشاي المخلوط بالنعناع. وفجأة، قطع صوتَ الراوي على أنغام الربابة صوتٌ مجهول آتٍ من أحد المراكب الصغيرة:

وصل يا أهل مصر.. مركب الأمير شيخو وصلت

الحرّاقة وصلت

وصل يا أهل مصـــر

اختلط الكل بالكل، وصار النيل نيلين، واحد هو الذي سيره الله منذ القدم في هذه الأرض المباركة، وآخر صنعته أمواج البشر المتدافعة على الشط، والمتصلة بغيرهم ممن وقفوا على المراكب العائمة التي صارت كأنما هي مركب واحد. يوجهون أبصارهم نحو أنوار القناديل اللامعة في مركب الأمير الذي يتوسمون فيه خيرًا.



استمرت مواكب المماليك السلطانية وأجناد الحلقة ممن ناصبوا السلطان الجديد العداء، ولبسوا آلة الحرب مع مغلطاي ومنكلي بغا. منذ تشرق الشمس حتى تغيب وهم ملقون على حمير وبغال كانت تجوب طرقات القاهرة. كان الواحد منهم يُربط إلى خشبتين على شكل صليب ويطرح على ظهر الدابة عاريًا إلا ما يستر عورته المغلظة بخرقة بالية. والصبية – نفس الصبية الذين هللوا منذ أيام لقدوم شيخو – يتحلقون حولهم يصفقون بأيديهم في حماس وترسل حناجرهم اللاهية نداءات سخرية بالمعذبين.



سوق القصبة بالقاهرة – بعد أسبوع من خروج شيخو

هذا سوق جامع. فيه كل شيء يباع ويشترى، ويكرى. برع المصريون في صنع الشموع الضخمة التي تجرها عربات الخشب. كانوا يكرونها لإنارة مواكب الصبية والكبار قبل صلاة التراويح في رمضان. حوانيت بيع الفاكهة جنب بعضها البعض، بين أسقفها عبرت عروق خشب كوموا عليها قشًا وبوصًا كانت توضع الفواكه تحته، وهي محمية من الشمس. يسمى هذا الركن بدار الفاكهة. بائعوها يتغزلون فيها علنًا. بائعو قماش وتمور وغلال في كل مكان.

دار السلاح قصية في آخر السوق يباع فيها كل شيء؛ من سهام الصبية التي تصنع لتعليمهم حتى حياصات المماليك التي كانوا يشدونها حول خصورهم، والسيوف بأنواعها، والبندق، والمقاليع. الجو في دار السلاح ساخن؛ فسن السيوف والخناجر بالنار لا يتوقف. رائحة الكير منفرة، وثقيلة.

أرباب المقاعد[1] استولوا على طرقات السوق وضيقوها. منذ أيام نشبت معركة كبيرة بينهم وبين أصحاب الحوانيت بسبب الطريق المتكدس بأقفاصهم وزكائبهم. كانوا يبيعون كل شيء؛ حلوى، وفطائر ولحوم شواء. الدجاجنة كانت لهم حوانيت كبيرة. يبيعون كل أنواع

---

[1] - الباعة الطوافون

الطيور حتى العصافير الملونة التي يهديها الآباء للصغار كي يطلقوها طلبًا للثواب؛

ثواب الحرية! محرومون منها ويهبونها للعصافير الحبيسة في الأقفاص، ويبذلون من أجل ذلك مالًا. لو أدركوا الحقيقة لبذلوا فداءً لها أرواحهم.

عمال المحتسب وناظر السوق كانوا ينشطون لضبط كل مخالفة وتأديب صاحبها، لكن البراطيل ما تركت للنظام شيئًا. يذهب الواحد منهم إلى البائع الذي يرفع سعر بضاعته قليلًا عن غيره من الباعة، يدس له صاحب الحانوت دينارين ذهبًا أو ثلاثة في يده، كل الأمور على ما يرام يا صاحب النظام، طيب الله يومك؛ فيتركه ساعة من زمن يغبن فيها كل من يأتي إليه مشتريًا.

عادة البراطيل هذه بدأت تتفشى منذ وقت قريب.

دس بائع الأواني النحاسية وجهه بين جليسيه، وتوقف عن تحريك مهشة الذباب المصنوعة من السعف الناشف. بدا كأنه يصارحهم بسر خطير عندما أخذ يقلب عينيه إلى اليمين تارةً وإلى الشمال أخرى:

الأخبار آتية من القلعة أن صرغتمش يجهز لمسك شيخو وطاز وخلع السلطان الصالح وإعادة السلطان حسن إلى الحكم.

كان بائع الحصر قد تمدد بظهره على الدكة الخشبية. كأنما لا يعنيه شيء مما قيل، ولكنه رد مستغربًا:

ومنذ متى يعرف العامة أمثالنا بأخبار القلعة وما يدور فيها قبل أن تقع؟!

انفلتت من مكري نعوش الموتى ضحكةً بالكاد كتمها ملء أنفاسه وأطبق بكفه على فيه يسد مخارجه، ثم مط شفتيه، وأشار بسبابته ونطق:

كلامك مضبوط. مضبوط جدًا. نحن لا نعلم بما يجري هناك. نحن فقط نقول آمين على ما يجري هناك. وأطلق الحصار عن فمه الحبيس واستسلم لضحكة مجلجلة.

بدا على بائع الأواني الغضب لمّا رأى سخرية رفيقيه مما قاله. وقف من على الدكة ونفض جلبابه كأن ترابًا علق به. كان يزعق ويحتج:

أصلكم لا تعرفون شيئًا. فمنذ أن استقر السلطان بصرغتمش رأس نوبة كبيرًا، وجعله هو وشيخو في منزلة واحدة إلا التصرف في مال الخاص، إذ به امتاز شيخو. منذ ذلك الحين ونفس صرغتمش تتعاظم وتتعاظم حتى إنه عزم على إبطال كل أمر يقرره أمير دون أن يمر على بابه أو يقترن برضاه. وقد كان ذلك فعلًا. بل إن الأمر قد ساء عندما صار صرغتمش يسير في مجالس الأمراء بذلك ويعلن على ملأهم عن نفوذه وسيطرته.

جزّ على أسنانه بغضب ظاهر، وأردف يكمل وهو يشيح بيديه ناحيتهما كأنما يهيل عليهما ترابًا:

أنتم هنا لا تعرفون شيئًا. فقط تأكلون وتشربون وتضاجعون تلك الأجساد الملقاة في دوركم وتخرجون إلى الشوارع تتفرجون. أنى لكم بمعرفة بواطن الأمور وحقائق الأشياء إذًا؟! آخرتكم الفرجة.

عاود مكري النعوش ضحكه وهتف في خبث ملاعبًا حاجبيه:

ومن أين لك أنت بمعرفة كل هذا؟ مِن بصّاصّيك الموزعين على قاعات القلعة وجلساتها؟! أو مِن جواريك اللاتي يأتينك بأنباء الأمراء من بين أحضانهم؟!

أشاح بائع الأواني عنهما وهو يغمغم فلحقه بائع الحصر مستغلًا انهزامه:

على بركة الله. تركنا لك بواطن الأمور وحقائق الأشياء. فلتترك لنا الأكل والشرب وما في الدور من متع. صحيح، ولا تنس الفرجة. ثم انخرط الاثنان في ضحك لا نهاية له بينما ولى رفيقهما الغاضب إلى حانوته. تعثر في بعضٍ من أرباب المقاعد بائعي الكنافة فأفرغ غيظه فيهم: **قم يا ابن الكلب أنت وهو من هنا. هو الدير ناقص رهبان؟!**

حديث الثلاثة هو حديث كل حانوت وكل دار في القاهرة. ألسنة تهمس بما يُتناقل بين جنبات القلعة عن الخشية من تعاظم سطوة صرغتمش، وأخرى – أضعاف أضعافها – تهرب من الواقع بالضحكات والنكات.



القلعة - ذات اليوم

في الإيوان المليء بالزراكش والمنقرشات جلس الصالح صالح يغوص في ثنايا خلعة السلطان. فرحٌ بالنعمة. يهش ويبش في وجه كل جارية تضع له عنقودًا من العنب المستدير كمقدمات الأثداء ويلتقمه هو كأنه أبلغ العطشى، وأحرى الجوعى. إذا ما مر قريبًا منه طيف مملوك صرخ كالمأخوذ من الخدر الجامع فيه أجمل الجميلات... لم يقطع عليه كل النعيم واللذة سوى أبواب الرواق التي شرعها الحرس فجأة؛ فكاد قلبه ينط من مستقره من الفزع! صرخته التي لا تتناهى إلى سمع أحد كانت خشيةً من أن يكون القادم عليه أحد الأمراء لينزعه من ملكه. قد يكون شيخو أو صرغتمش. ولم لا يكون طاز؛ ذلك الذي أتى به إلى ها هنا، واليوم يرغب في أن يعيد لحظيرته حقًا يراه هو المتحكم فيه والولي عليه!

انحنى طاز بعدما قبل يد السلطان المرتعشة. بكلمة **"مولاي"** الحزينة الغاضبة سكنت روح صالح. أطلق تنهيدة العائد للحياة وألقى بجسده الذي تتراقص شحومه على الأريكة السلطانية.

طاز غاضب. يخاطب السلطان:

ينفع يا مولانا السلطان ما يفعله صرغتمش؟ يمشي بين الأمراء متفاخرًا ومتباهيًا بما منت عليه الذات السلطانية. وإن اكتفى بذلك فالأمر هين، لكن يعلن على ملأهم أن الأمر والنهي له ومنه.

أما صالح فعقل الصبي فيه لم تقر فيه طمأنينة بعد. مخالب الذعر الآفِل ما زالت تخدشه. قال في رجاء: **يعني الأمور كلها آمنة، ولا تهديد للعرش أو السلطان؟!**

علا الاستغراب وجه طاز وهو بعد كأنه محني: **وكيف يأمن العرش وواحدٌ من الأمراء يتصرف كذلك يا مولاي؟! لسان صرغتمش لا ينتهي عن الثرثرة بمكانته الحالية. ومع الثرثرة يتزايد همس العامة والسوقة. وكلما زاد همس هؤلاء استفحل الخطر وقويت رغبات النفوس الممنوعة. وصار الملك والعرش والسلطان في مهب التمرد والعصيان.**

وهما على هذه الحال قدم كبيرا النوبة العظيمان. كانا يسيران في حذاء بعضهما البعض. تساوى الرأسان، وأنصاف القوالب صارت جدران شامخة. الهدوء يغلب على شيخو فيحيل شيبته وقارًا على وقار ويظهره في هيئة الرزين الحكيم لهذه الجلسة المرتقب صخبها. أما صرغتمش فحاله لا تقل عن حال طاز؛ غضبٌ حاد وقبضة محكمة على السيف في الغمد، وعروق الكف تكاد تميز من الغيظ.

"جئت هنا توغر صدر السلطان عليّ بعدما أعلنت أمام الأمراء أنك ستلزمني حدودي". قال صرغتمش مخاطبًا طاز حتى قبل أن ينحني للسلطان أو يقبل يده مسلمًا.

يكظم طاز غيظه ويطلق لسانه وقد امتلك زمامه: **لمجالس السلاطين آداب وأحكام وأصول يا أمير.**

رد صرغتمش والغضب يلجمه:

أنا خير من يحفظ للسلطان حقوقه، وأعرف الناس بأحكامه وآدابه. أنا من قاتلت من أجل جلوس مولانا على العرش، وأنا الذي طاردت مغلطاي ومنكلي بغا في بساتين المطرية حتى..."

يقاطعه طاز وصبره ينفد:

بساتين المطرية، بساتين المطرية. صارت تلك مقولتك في كل مكان. يعني كنت لوحدك في بساتين المطرية؟! عجيب أمرك. وأنت من تسمع للأقاويل السارية بين الناس والدهماء أنك ستمسكني وشيخو وتعيد السلطان حسن إلى العرش. تسمع ما يشاع ولا تبدي للأمر نفيًا أو زجرًا، لكن تصبغه بلون الرضا والقبول. وتجهر بأن كل أمر لا يأتي من بابك فلا قضاء له. أفق يا صرغتمش.

من شدة الغضب كان صرغتمش ينفث رذاذًا وصدره يموج وأسنانه تصطك فقال:

صرغتمش هكذا؛ بلا لقب ولا تعظيم.

وسلّ سيفه في لحظة غضب؛ فصاح السلطان:

الحق يا عم شيخو... أنْهِ الشجار بينهما.

لم تكن يد شيخو هي التي حالت بين الأميرين المتعاركين. إنما هو باب الرواق الذي شُرِع مرةً أخرى وجاء منه طواشي يجري. ركع بسرعة وقال في لهفة: **رسول وركب عاجل من دمشق يا مولاي.**

أُجل ما بدر من النفوس برهة من الزمن، ودُعي الرسول على عجل فنطق بالخبر:

هذا جاسوس أمسكناه على مداخل دمشق يا مولانا السلطان. اشتبهنا في أمره ففتشنا جرابه. ووجدنا فيه تلك الرسالة.

انتبه طاز وصرغتمش من غضبهما. أومأ السلطان برأسه إلى شيخو فتناول الرسالة وبدأ يقرأ ما فيها:

"من الأمير منجك صاحب الوزارة بالقاهرة إلى الأمير نائب حلب الأخ الغالي بيبغا أُرس

التحية والسلام عليك

فإن الأحوال في القاهرة مواتية لما نريد ونبغي منذ أمدٍ بعيد. والأمراء شقاقهم دائم وتهامسهم مستمر وقد أفرغ الله على قلوبهم التنازع والطمع. وقد هيأ القدير الترتيب لنا والتدبير فعجل بالحركة والركوب إلى هنا. واعلم أن الأيام في هذا المسار تذهب لا تجيء فلنحملها على أن تتوقف، ولو قليلًا، أمام أبوابنا".

صمت شيخو. ساد الصمت كل ربوع الإيوان، وربما القلعة كلها. كل أركان القاهرة مفجوعة في الأخوين؛ الوزير ونائب حلب. كل الشوارع تبكي خيانتهما للسلطان ورفقائهما من أمراء الملك الحاضرين. كل الزهور التي نثرها العامة على رأسيهما لما خرجا من السجن مع شيخو ذبلت ودموعها على أغلفتها. كل أياديهم وأصواتهم التي بُحت من الهتاف لهم الآن تصمت. تصمت من الصدمة ومن الحيرة. حين وقع الجميع على سبب الفتنة التي تستشري منذ زمنٍ في بلاد الشام تحرض على السلطان كان لزامًا الصمت.

بعد زمن صاح السلطان من على كرسيه:

يقول له؛ شقاقهم دائم. صدق والله. قل لهم شيئًا يا عم شيخو. قل لهم. الحين تسكتون، ومملكة أبي وجدي تضيع. يا ويلك يا صالح.

ومن يَدعْ الصمتَ يستمر في دوامه في قلعة الجبل؟!

صاح أحد الأمراء الذي أتى إلى الإيوان مهرولًا:

لقد تسلطن بيبغا أرس بحلب يا مولانا السلطان. تسلطن وتسمى بالملك العادل.

زعق السلطان غاضبًا مذعورًا:

فتشوا عن منجك... هاتوه حيًا أو ميتًا.

★★★

صياح المنادين في حواري القاهرة وأزقتها يتفلّت مرة أخرى من بين دقات الطبول ومن فوق ظهور البغال:

يا أهالي القاهرة الحزينة

هذا أمر من مولانا السلطان

فتشوا معنا عن الوزير الخائن

الذي رتب للحركة والعصيان

منجك الأمير

من يعرف مكانه ولا يبوح به

يا ويله، و يا سواد ليله

وهذا للناس بلاغ

★★★

انتظمت حركة الجند والمماليك، وانضبط تجهيز المؤن وإعداد الجيش الطالع إلى الشام. كل شيء تم على عجل. سنُّ السيوف، اقتناء رماح جديدة، وتوزيع دروع مصنوعة من الصلب على مماليك الجيش. تنظيم حاميات البلدان المصرية في وقت الحرب، جلب الغلال من الشون وتحميلها على عربات تجرها خيول رفقة الجيش. كانت كل أرض القاهرة تشغي بالحركة، والأخبار آتية من الشام أن الملك العادل"بيبغا أرس" يريد مصر وقد حلف أن يشنق الجميع؛ طاز وشيخو وصرغتمش وبزلار وأرغون الكاملي، وأن يعلق رؤوسهم على أبواب أسوار القاهرة بعد أن يطوف بها غلمانه في طشت من الذهب على رؤوس العامة.

الخطر محدق بالجميع. والسلطان الذي كان يخشى من تمرد أحدهم بالقاهرة صار معهم في خندق واحد. إن هُيئ النصر للعادل فإن حفرة واحدة ستواري أجسادهم بترابها، ولربما تُركت جثثهم لمخالب الجوارح تتغذى عليها أيامًا. سُتعلق الرؤوس على بوابات القاهرة وسترنو إليها أبصار أهلها الذين ما انشغلوا إلا بحاضرهم، ولا تاقوا إلا لعصرهم الذي يحيونه. وإن خاب مسعى العادل فسينجو الجميع؛ السلطان وأمه، وكل الأمراء. الفائز الوحيد في كلا الحالين هم أهل مصر وعامتها ودهماؤها وحشاشوها؛ ذلك أنهم سيظفرون ببغيتهم على أية حال؛

الفرجة على ما يحدث. وهذا مبلغهم من الأمر فحسب.

خرج الجيش على رأسه السلطان يمني نفسه بالسلامة والظفر. في المقدمة كانت فرق الطبلخاناه، تقرع الرعب وتصم الآذان. الأحصنة سارت ترفع أعناقها ناظرة نحو نصر منتظر؛ فلم يحدث من قبل أن انتصر خيل المتمردين على سلطة القاهرة وسلطانها. لم يحدث من قبل أن دانت قلعة الجبل وسلمت فروض الطاعة لمتمرد آتٍ من توابعها. بين الجند كانت تطغى عليهم روح الجهاد ومقاومة البغاة الذين يريدون الانقضاض على السلطان ونزع العرش منه بعد ما ارتضاه المسلمون لهم سيدًا وحاكمًا. هي الحرب تدور رحاها بين جوانحهم، وتُنثر دماؤها في خيالاتهم.

بينما كان الجند بسلطانهم وأمرائهم يقطعون المسافات وينهبون الأراضي فإن الناس في القاهرة كانوا متحمسين إلى أبعد حد. دعوا للسلطان كما هي كل مرة. الحريم لبسن السواد احتجابًا عن البهجة ونذرن للنصر نذورًا. ضيقوا على أنفسهم في المأكل والمشرب وتصبّروا حتى يأتي يوم الظفر بموائد عظيمة وأسمطة على مدّ البصر. موالد الأولياء في القاهرة التي آن أوانها أجّلّوها حتى يندحر العدو. الدراويش طافوا يصيحون:

حي بلا عدد، الصالح ذَهَبْ له المدد.

لا حديث في الحوانيت أو الدور أو في جلسات السمر من بعد صلاة العشاء سوى عن الجيش الذي رحل. بلد تحيا بالحكايات، وأقوامٌ يذرفون الدمعة وينسونها على عَجَل؛ لا دمع إلا على بطون خاوية.

يصيح الدراويش من بين ظلمات الليل:

حي بلا عدد، الصالح ذَهّبْ له المدد.

يأتون من بين الجبانات، ومراقد الكلاب الضالة:

حي بلا عدد، الصالح ذَهَبْ له المدد.

الجالسون على المقاهي انتبهوا. ألجمهم العجب؛ مال الدراويش والحرب؟

التقى الجيشان. وجاء أهل القاهرة الخبر من فوق بغال المنادين:

تقابلت السيوف، تطاحنت أجساد البؤساء القادمين من كل صقع وحدب، وتراشقت السهام، وتصافحت بعنفٍ النبال. تحادثت مع بعضها حديث الندِّ للندّ، لا حديث التابع والمتبوع. تجمعت أفواج الغربان والبوم قريبًا من المكان تستعد لوجبة قادمة لتوها من أحشاء القتلى ودمائهم.

نسي القادمون من بلاد القفجاق أصلهم الواحد، وسيرتهم الواحدة. نسوا كيف سُلبوا في جنح الظلام من أحضان أهليهم في ليال متفرقة. نسوا سيرهم الحثيث مع تجار الرقيق تحت قطرات مطر الشتاء البارد. نسوا محاولاتهم البائسة للفرار من ربقة النخاسين. نسوا كل الذكريات التي عاشوها معًا تحت وطأة اختلاف سبلهم ما بين مصر والشام. صاروا اليوم في جيشين يتصارعان من أجل الحكم والسلطة. والمتكلم هنا السيوف ولا غيرها. لا صوت لأصل ولا لفصل. لا نداء لأحزان الأمهات اللاتي بكين صغارهن المخطوفين ليالٍ طويلة. لا اعتبار لأمانيّ

الآباء الذين باعوا أبناءهم وسط السهوب لما قوي عصبهم. ولا رغبة في الالتقاء مرة أخرى تحت قطرات المطر.

طاف الدراويش وهللوا بنبابيتهم العتيقة:

مدد يا أسيادنا.

كانوا يضحكون بعلو أصواتهم، ويرفعون عصيهم ويطوفون بها في الهواء كأنها رايات. أهل القاهرة لما رأوهم عرفوا الإشارة، وأيقنوا بالكرامة. طاف المنادون قبل أن يأتي رسول النصر يزفون البشارة لأهل الحواضر. انفرجت عن القاهرة كربتها. ذهب الجميع إلى الحمامات يلقون أوساخ أجسادهم ويستعدون للاحتفال بالنصر. الحريم خلعن السواد وارتدين المزركش واللامع، لكن في بيوتهن. تجملن وتطيبن وبدأن في الطبخ. في كل بيوت البلدة شاعت روائح الشواء، والدهن.

نادى المنادون مرة أخرى: **انتهى الأمر، واستمرت أعناق خيل القاهرة في علو وزهو.**

قفل السلطان عائدًا إلى مصر فخرج إليه مالكو الفرجة يهللون ويزعقون بالهتاف. فرحين بماذا؟! هم لا يدرون. هم يفرحون وحسب. ويتفرجون وحسب. وينثرون أكاليل الزهور وحسب. ضاقت بهم الطرقات إذ احتشدوا لتحية الجيش المنتصر. طلع السلطان إلى القلعة فتلقته أمه وجواريه بالذهب وقد نثرنه فوق رأسه، وفرشن طريقه بالشقاق الأطلس الملونة. وفي هذه الليلة قُدم الحشيش بالمجان احتفالًا بيوم النصر. ولم تنطفئ مصابيح الشوارع الساهرة لسبع ليالٍ بأيامهن.

الكل أصبح عالمًا بالوجهة بعد فراغهم من الاحتفالات والابتهاج بالنصر في معركة الشام. فشيخو سوّى الأمور بين طاز وصرغتمش ونبههما إلى أن خطر الصعيد مستمر، وغارات العربان على قرى المصريين لا تتوقف. العربان تجاوزوا المدى ولا بد من وأد الفتنة هناك حتى تستقر أحوال السلطنة ويستقيم أمرها.



وادي الغزلان

المغارة

مغارة وحيدة في صحراء الغرب آوت الشيخ القادم من إسنا. ظلّ فيها أيامًا وليالي، ولا شيء يفعله سوى الصلاة والذكر. كان يترصد لمواقيت الصلوات بواسطة حركة الشمس والنجوم في سماء الله المتسعة. عند الزوال يقيم الظهر، وعند بلوغ النهار نحو الغرب يقيم عصره، والمغرب عند مغيب الأفق واختفاء الشفق، والعشاء إذا احتلك الظلام وسادت العتمة. يجلس بعدها يرسل للوجود ترنيمات وجدٍ يحرقها الشوق. يتأوه فيسمعه كل الكون من حوله. يبكي بالدموع فتحزن له قمم الجبال التي تحوطه، وتنكمش حبات رمال الصحاري التي تحتويه، ويكاد حجر المغارة الصلد أن يتشقق وتهطل منه دموع الخشوع والخضوع. وعندما يسبح ويستغفر فكأنما هو داوود النبي، وكأن طيور البرية تصحو من نومها وتردد معه، وضباع الليل ووحوشها تكف عن مطاردة فرائسها من الغزلان والظباء وتجلس في حلقات تسترق إليه السمع، ويتدحرج من محاجرها خيطٌ شفاف يطلب من الله الرحمة، ولفحات البرد القاسية كفت عن مضايقتها لركبان المسافرين البعيدة وصارت عليها دفئًا وسلامًا. العقارب التي كان منها ما يضوي في الظلمات صارت تجري هنا وهناك لكنها لا تؤذيه.

يصرخ فجأة: **أنا المذنب وما أذنبت. أطمح إلى حبك ومركبي بلا شراع. أريد التذوق والإدمان، كفاني ما لاقيت من دنيا البشر. واليوم**

أنا على بابك وحيدًا، منفردًا، عاريًا من كل زيف وبهرج. وأنت الحليم يا حبيبي. فاقبلني ولا تردني.

تعتري الشيخ نوبة بكاء حادة تشاركه فيها الأسود والفهود وقطعان الغزلان والظباء الآمنة بعد خوف، وتثور زعابيب الرياح الباردة وتشتعل حركة الرمال كأنها تعتصر مثله ألمًا مخفيًا. يختنق من البكاء. والبكاء صارت له لذة. ولا ينقذه من لذته سوى لذة أشد؛ إذ يبزغ الفجر بين جوانح الظلمة فتعلن كائنات الوجود التي ترافقه كل ليلة أن الصلاة قد حانت. يقوم إلى ركن قريب فيجد قربته قد مُلئت ماءً لا يعرف كيف أتى إلى القحل الحاكم هنا. يملكه العجب فيخاف، وتسري فيه رعشة خفيفة ويتملكه إحساسٌ غريب. يسمع صوتًا يأتيه من كل جانب. الصوت ليس غريبًا عليه. كان يقول له: **توضأ فإن الله في قضاء حوائج المتوكلين.**

هذه المغارة التي كانت تعاني الظلام والوحدة أضحت الآن مليئة بالأنس والضياء. هي مركز وجود كل الموجودات هنا، هي فلك نجاتهم، ولذة حياتهم، وعقلهم الذي لم يهبهم الله إياه. ليس مع الشيخ ثمة مصباح زيتٍ أو حتى شمعة يشعلها فتنير المكان. الضياء ضياؤه؛ ينبعث من بين ثنايا القلب الصافي، واللحية الكثة، والذكر الذي لا يتوقف.

طال مقام الشيخ ها هنا، وهو لا يصيبه مللٌ أو كدر. كيف يملّ من قضى وقته مع الخالق الواحد؛ صاحب الحضرة وواهب الحظوة، هو هو وقت يذهب الجميع ويتفرق الكل. أنى لقلوب المجروحين أن تتكدر إذا ما رافقت المحبوب في غفوها وصحوها، وكيف لباحثٍ عن الهداية أن يتركها إذا ما عثر على سبيلها واهتدى إلى صراطها فاجتازه عدوًا؟!

مجيء الشيخ إلى هنا ليس بإرادته. ساقته إلى هنا إرادة عليا. إرادة تعطي الأمر وهو عليه التنفيذ من فوره. وكذلك ذهابه عن هنا ليس داخلًا في نطاق ما يملك. وأي شيءٍ من حياته – ذلك الشيخ – قد عاد يملك؟! إنما وهب كل حياته لله رب العالمين.

سينتظر دون أن يشغل باله ولو لحظة عن موعد الرحيل.



أصفون – بعد الرحيل بأسبوع

في البلدة بزغت شمس جديدة، وحيدة، حزينة وحائرة. غادر من غادر إلى إدفو يطلبون وادي الغزلان حيث يعسكر زعيم العربان الأحدب ابن واصل، وكأنهم أخذوا معهم كل شيء: جلبة القرية، وبهاء دورها، وبركتها، وضحكات حريمها وهن يملأن الجرار من النيل كل يوم قبل الشروق وقبل الغروب. كل شيء ينبىء عن الحيرة والترقب. زراعات القصب مستكينة لا تلوي على شيء. يروقها أن تقبع غرب البلد، ولا أحد يدري ما علة الغرب في قصة هذه البلدة. الموت اتخذ لجباناته ومقابره مواقع في الغرب منذ أيام الفراعين. المماليك دومًا يتحاشون الغرب، وكأنهم يخافون منه، يخشون الأفول الذي يمثله والظلمة التي تحل أولًا من ناحيته كل ليلة؛ فهل تسطع من قِبَلِه شموس الهداية يومًا؟ رياح هاتور بجبروتها وعنفها ما عادت تقطع أوصال فروع الأشجار، أو تنخر جذوع النخل الثاوية الخاوية، كانت تتخلل بين فروع الكافور فما هي إلا كالنسمة، ولا تأخذ مثقال ذرة من هيبة أشواك السنط التي تحرس أشجارها المغروسة على أطراف بعض القنوات والجداول. كأن رحيل الرجال له وجع يملأ الكون. انظر إلى القوافل التي كان يملأ صخبها الآفاق، اليوم تأتي من الجنوب كسيرة خفيضة الجناح كأنها تبكي الهادي عدنان وسليم بن أحمد.

لم يبق في أصفون من الدورية إلا قليل. غادر جمعهم بزعامة الشيخ الفضل إلى إدفو، وقبل الرحيل بليلة جمعهم الفضل وأسمعهم كلامًا

فيه كل الشجن والأسى على ماض لم يولِ بعد عن عقله وحافظته. أخبرهم أن الفرصة قد لاحت للثأر من المزدية. أحدهم سأله كأن خبر الحرب لأول مرة يقع على مسامعه: **الثأر منهم نأخذه بقتال المماليك؟!**

أجابه بهدوء: **نعم. أصدقاء عدونا أعداء لنا.** ثم ثار واندفع واستجمع كل حرقته المكتومة: **من نصّب المزدية غير أولئك المماليك وحكامهم في إسنا وأرمنت؟ حانت الساعة، واقترب الحلم البعيد، وآن للنار المتقدة زمنًا أن تُخمد.** كان يهزهم من أكتافهم، وعيناه تقدحان شررًا فسأله أحدهم: **والعمارية وآل خليفة؟**

بهدوء أعقب عاصفته رد: **يكونون لنا تبعًا كما هم اليوم للمزدية.** ولما تم له الأمر وأقنعهم بالحماس والحرب توصلًا إلى الثأر، اختار منهم جمعًا للرحيل. انتقاهم بنفسه بعد أن دبر – دون أن يخبر أحدًا – مواصفاتهم وشروطهم. واستبقى في البلدة قليلين أوصاهم أن يضبطوا كلماتهم حتى العودة. خفت حديثه لهم وهو يُجحظّ عينيه: **أقيموا بكلماتكم ألف حال وحال.**

أما بكر شيخ المزدية فكان حاله رتيبًا بعد الرحيل: أول اليوم يطلع إلى عطفة الخبّال؛ أول أصفون من بحري. يستند كالعادة على عصاه، وعلى ذراع جابر وكان عثمان شيخ آل خليفة ثالثهم. قال بكر بصوت فيه ركاكة: **لا تقلقوا يا مشايخ. لن ينهزم المماليك.** وكان بكر أول ما يرفع أذان الظهر تراه مهرولًا إلى الصف الأول في الجامع الكبير. ثم بعد أن تُقضى الصلاة يسبق الإمامَ ويرفع صوته وكفيه: **اللهم انصر إخواننا على الظلَمة. اللهم إنا قد اضطررنا إلى القعود فلا تخذلهم.** كان

يدمع. يدمع بحق، وجابر وعثمان ينظران إليه ولا يصدقان. **أهذا هو الرجل الذي كان يجزم لنا منذ ساعة أن النصر للماليك!** في المساء، وهما عنده في بيته، وكان قد استند إلى مسند محشو بالقطن، يحتسيان الزنجبيل وقنديلٌ في الحائط تتراقص ذبالته، سألوه عن العجب الذي سمعوه في المرتين. قال لهم وهو يميل إلى الأمام ليحك صفحة قدمه: **المماليك لن ينهزموا؛ هذا تقدير العقل. لكن لا حيلة لي مع قلبي الذي يتمنى أن يرى قومه منتصرين.**

لكن لما كان الليل يحكم سطوته على البقاع، ويخلو بكر مع نفسه يضع جسده النحيل على فراشه الوثير؛ كانت نظراته تائهة في الغرفة المظلمة. يأتيه في سره هاتف: ماذا لو انتصر الأحدب؟ يعود الفضل مزهوًا ومعه كل الدورية ويُعلي السيد الجديد شأنهم ويصيّرهم زعماء على أصفون! يغير جنبه فيكمل الهاتف: أحقًا من الممكن أن يحدث ذلك؟! كالبرق يتفل عن شماله ويستعيذ بالله من شر شيطانه. يهمس لنفسه: **لا لن ينهزم المماليك ومعهم كل هذا العدد والعتاد، والحيلة والمكر، والجبروت والقهر. أخابت الحروب حتى يقال انتصر الأحدب، وتخبو أصوات منادين السلطنة في القاهرة بعدما يولي شيخو وطاز وصرغتمش صاغرين؟!** يتعبه الفكر، ويغيظه أن لا حيلة عنده لمنع الشؤم أو الإسراع بالمرغوب. يستوي على ظهره ويصرخ مكتومًا: **ألوذ بالحيلة والمكر في الكلام حتى يأتي الخبر. لقد خادعت الجميع؛ حتى جابر وعثمان.**

ذلك الرجل على قصر قامته داهية لا يشق له غبار. كلهُ على بعضهِ عظام ناتئة مرقعة بجلد لين لكن من يبلغ مبلغه من الحيطة والمكر!

مع أول خيوط الصبح تقلقه بنت له. كانت تجوب البيت طولًا وعرضًا بحثًا عن قفّة تملأها بالدقيق لترسله إلى مريم أم عزيز الجاوي؛ غدًا عرسه.



مريم (أم عزيز)

يااااه. أخيرًا يا عزيز، أخيرًا انحلت عقدتك وسأراك أمامي برفقة عروسك يا ولدي. روحك أتعبتْ روحي. وحق انفتاق الصبح في الأفق إنك لعزيز يا عزيز؛ على قلبي وعيني وكل كياني. كيف لا تكون كذلك وأنت بضعة مني، أنت عقب أبيك بهي الجاوي على هذه الدنيا. أنت من ملأت البيت الفسيح وأحلت أيامي كلها رهقًا ونصبًا. من يوم ما تعلق قلبك ببنت الهادي عدنان وجئتني تقول: **أماه، أريدها زوجة**، وأنا قلت: **يا خراب البيت**. في عيون البنية نظرات قلق وريبة تجاهك، كانت تنبعث منها كلما تراك، وأنت لا تدري بشيء. وقعتَ أسير الحب وصرت مثله أعمى. امرأة مثلي فحسب هي من ترصد تلك النظرات المشبوبة المرتعبة؛ هذه أمور لا تلاحظها إلا النساء، الأمهات منهن فحسب. بلّغتك وأنذرتك من العواقب وقلت لك سكة أبيها الهادي غير سكة المزدية قومك وأهلك، لكنك أبيت وأصررت. الهادي في مواقفه صلابة، عنيد إذا ما ارتأى أمرًا أو اتخذ قرارًا. منذ زمن أعلن نيته اللحاق بالأحدب واعتبر كل من لا يقف موقفه متخاذلًا عن نصرة العربان وحقهم الذي سلبه المماليك. ارجع يا عزيز، سيحسبك على قومك. ارجع يا عزيز، ارجع. لكنه لم يرجع. وأسمعه الهادي المغرور كلامًا يكرهه. ودار الكلام على ألسنة أصفون أيامًا وأيامًا أن الهادي رفض طلب عزيز الزواج بمباركة. الله يلعن المماليك وسيرتهم، ما نابنا منهم غير الفرقة التي دبت في البيوت، والسحل في دروب أصفون. ما زلت أذكر التجريدات

الصغيرة التي كان حكامهم يوفدونها إلينا حينما نحجب عنهم مكوسهم وضرائبهم الجائرة. كانوا يدخلون القرية؛ أعظم قرية، والمدينة؛ أكبر مدينة برجلهم وخيلهم يثيرون الغبار ويبثون الرعب. يتقدمهم كبيرهم الذي يحسن من العربية كما نحسن نحن مع بعض اللحن الظاهر. من فوق فرسه وبنظرات كبر كان ينادي: **المتمردون المانعون لضرائب ومكوس مولانا لو رجال يخرجون إليّ.** أو كان يظن فينا جبنًا حتى نتوارى عنه أو عن رجاله؟! تقدم الرجال واحدًا تلو الآخر، على رأسهم أبوك يا عزيز. كل واحد منهم كان بمقدوره أن يسدد الضرائب عن أصفون كلها، لكنه رفضُ الظلم والجور. السياط كانت تلهب أجسادهم في وقت واحد. لم يصدر عنهم صوت، قهروا الوجع وحبسوه عن أعين ومسامع المماليك. جُرجروا على الطرقات وسالت منهم الدماء، ولا أصوات. قيدوهم على جذوع النخل وعروهم وجلدوهم مرة أخرى، ولا أصوات. تركوهم على هذه الحال ونادوا: هل من معترض؟! ولا أصوات! ذهبت التجريدة ومعها كل مؤن البيوت من الغلال والبهائم. أخذوا ما يماثل الضرائب المفروضة أضعافًا مضاعفة. أما نحن النسوة فكنا نقضي ليلنا كل واحدة تطبب جراح أبيها، زوجها، أو أخيها. منهم من قهرته الجراح والسياط والصرخات التي كتموها عن الدنيا فمات؛ مثل أبيك يا عزيز. مات على يديّ هاتين وأنت بعدُ جنين في بطني. رحل عن الدنيا قبل أن تأتي أنت. هو الوحيد من المزدية الذي كان يخالفهم. يخالفهم في كل شيء يراه عيبًا. كان رجلًا ولا كل الرجال. بهي وهو بهي. لا أدري لم مات وترك لنا أمثال بكر! من بعده كنتُ لك الأم، والأب، والأخ، والصديق. أعطيتك ما أردت؛ أبديت رغبتك فيه أو كتمت. صرت صغيري المدلل، وأصفون كلها قالت: عزيز الصغير ابن أمه. لا عليك؛

بلدنا بلد كلام. وأنا لم تكن بيدي حيلة أن أمنع نفسي من هذا التدليل. في حياتي لم أمد يدي إليك لأعنفك على خطأ اقترفته. كنت أقول لك: **لا تفعل كذا**، وأكتفي بذلك. حتى الحملقة لم أكن لأرسلها من عيني إليك، كنت أخشى عليك من دموعك التي ما رأيتها مرة واحدة. ورثتُ عن أبيك أموالًا عريضة، وتجارة تروح وتجيء، رعيتها وكبرتها ونميتها من أجلك. من أجل أن تكبر وأهل الكلام يشيرون إليك: عزيز التاجر الماهر؛ ابن بهي الجاوي المزني. لم تخيب رجائي فيك، ونلت من أرباح التجارة ما لم أتوقع. شيء واحد هو الذي تمنيته فيك ولم تفعله. هو الهادي السبب؛ من كان يدري لو قبلك زوجًا لبنته، أن تكون رفيقه إلى إدفو بدل سليم بن أحمد. لأراح قلب أم على وليدها، لكنه قدر الله والنصيب.

يا فجأة الوقت. ما هذه الأصوات التي لا تكاد تتمايز من تحت باب الدار؟ امم إنهن نسوة البلدة أتين بأرطال الدقيق يقدمنها لنا لخبيز العرس كما تقضي عادتنا منذ قديم الزمان. قرّ كما أنت هانئًا في فراشك يا ولدي، الغد يومك، وسأذهب أنا إليهن.



كان قطنبة يستلقي على الأرض تحت شجرة عظيمة الفروع على زمام البلدة الشرقي. نصب رجله اليسرى على الأرض وأراح عليها رجله اليمنى وسكن إلا في بعض لحظات كان يهش فيها بيده ذبابًا لا ينقطع دورانه حول وجهه. نبيه الدين بن عبد المنعم كان يجلس بجواره

يمسك بقشة بوص يخطط بها على صفحة التراب. على القرب منهما جدول ماء يأتي من بِركة مصدرها النيل الشرقيّ، وعلى حواف الجدول كان ثمة عصافير تحاول ري ظمأها تطير فزعة لما تحل الغربان والعِقْبان. على ظهر الجدول جذع نخلة عظيم، معسكر من النمل الأسود يعبره وهو ينقل معاشه إلى جهة غير معلومة. النمل لا يخشى قدمًا تدوسه فالمسيرة لا تتوقف من أجل بعضٍ منه تدهسهم الأقدام التي قد تمر. وفي السماء سرب حمام جبلي يحلق في ظل سحابة مديدة تمشي الهوينى.

قال نبيه: **أما كان لعزيز أن يرجئ عرسه إلى بعد انتهاء الحرب.** ثم توقف عن التخطيط على التراب وغمز بإحدى عينيه وأردف: **كم أنت عجول يا عزيز.**

قطنبة كان قد كف عن هش الذباب لكنه بدا سارحًا عن ضحكات رفيقه، ولاح على وجهه الجد لمّا قال: **ما بال الشيخ عليش يا نبيه؟**

- عليش؟! ما الذي أتى بسيرة الشيخ عليش الحين؟!

- رأيته في المنام البارحة.

عقدت الدهشة لسان نبيه فصار يتمتم: **المنـ... المنـ.. ماذا تقول: المنام!**

أكمل قطنبة بعدما اعتدل وجلس: **ما باله يلبس الخرقة البالية المرقعة على جسده يجوب الطرقات كل ليلة وما على لسانه سوى الصياح: الله، الله. كنت أسمعها منه وأنا أقرض الشعر في الليل فلا أكاد أنطق. في صوته جلال وفي صمته جمال. الكلمة كانت تخرج من**

فيه وفيها كل معاني الحياة والخشوع؛ تصيب بالخوف والرهبة، وإذا ما صمت لا يسعك سوى أن تُغمَرَ بالسكينة. هكذا حال المستمع في جوف الليل يا نبيه؛ يتقلب من مقام الهيبة إلى منقلب الأمان. طرقات عصاه كان لها دوي عظيم؛ العصا حية لا تتوقف عن الدوي حتى لو أخلد إلى جدارٍ يريح عليه جسده، هكذا خيل إلي. ما قطع عادته هذه غير ليلة وحيدة، مرض فيها وركبته الحمى وأرقدته في مضيفة بيت حمدون. اجتمع كل أهل أصفون يطببونه ليلتها، وهو يلهج بالكلمة ولا يتوانى. لا يتقدم ولا يتأخر؛ يلفظها في وقتها المحدد. رغم العرق المتفصد على جبهته والسخونة التي كانت منه تلفحني وأنا أبعد عنه أشبارًا وأشبارًا إلا أنني كنت أسمعها منه. الله، الله؛ حيَّرَتْني، وحيرني معه.

تنهد قطنية ونظر إلى نبيه. سكن للحظات فبدا على نبيه عجبٌ فوق عجبه.

أكمل قطنبة: **أو تدري يا نبيه أن الشيخ عليش كان فقيهًا عليمًا، وأنه كان في بلدة ما – لا أحد حتى الآن يعرف أين هي؛ قريبة أم بعيدة – معه أهل وعزوة. إخوانه الذكور تنازعوا فيما بينهم على الميراث بعدما مات أبوهم. تدخل الشيخ عليش وقال لهم لا نزاع وأنا بعدُ بينكم، أنا أخوكم لكني أكبركم سنًا، أنا أبوكم بعد أبيكم. وكل شيء سيُقسّم حسب ما أنزله الله في كتابه. امتثلوا لما قال فأمسك بيده قصبة فرعونية ليقيس بها الأراضي والأطيان. بلغت التركة أرضًا ممتدة، ودورًا كثيرة، وبهائم ومواشٍ أتعبتهم في تصنيفها. اجتمعوا من بعد صلاة عشاء وأتى الشيخ عليش من الجامع فابتدره أحدهم: أنا**

لا أرضى بقسمتك. كان أصغرهم ولا أحد يعرف ماذا دهاه لكن الكلمة التي نطقها كانت كلمة الشيطان التي نطقها من بعده أخوه الذي يكبره، ثم الذي يكبره، وظل أكبرهم – ذلك الذي يصغر الشيخ عليش – صامتًا. كلمة واحدة، متماثلة، جميعهم قالها: أنا لا أرضى بقسمتك، ولا أنا، ولا أنا. لكن لكل واحد منهم غاية وغرض، والغرض كما يقولون مرض. ذهل الشيخ عليش وصاح فيهم: اتقوا الله. هذا حكم الله لكنهم لم يتقوه، ولم يسمعوه. تعاركوا بالأيادي وضج الدرب بصياحهم وسبابهم فاجتمع عندهم الناس. أبعدوهم عن بعضهم لكن الغضب كان قد تحكم في العروق وسار مع الدم يعجله، والكلام استمر؛ لم يكن كلام الناس لتهدئتهم وطرد الشيطان عنهم، ولم يكن كلام كبيرهم: فضحتونا فضحتونا، ولم تكن تمتمات الشيخ عليش؛ لا حول ولا قوة إلا بك يا رب. إنما كانت شتائمهم وسبابهم ومعايرتهم لبعضهم بعدما أظهر كل منهم غرضه في تلك الأرض التي تقع بالناحية الفلانية أو قطيع المواشي الذي يسمن منذ سنين في الحوش الكبير. حتى الشيخ عليش حشروه في كلامهم فصاح أصغرهم؛ ذلك الذي امتطاه إبليس: كبيركم المتصنع للمشيخة العاجز الذي لا يقوى إلا على ملازمة الجامع والدروس.

أو صار الزهد عجزًا يا ابن أبي؟! بكى الشيخ عليش، بكى كطفل نكبه موت أبيه. والتقف كبيرهم – ذلك الذي يصغر الشيخ – حجرًا من على الأرض، اقتحم جموع الناس التي تحول بينه وبين الشيطان الأصغر، ولما تراءى له رماه به وهو يزعق: مالك وماله يا عديم الأدب.

وقع الشيطان على الأرض في دمائه، ولما أرادوا أن يفيقوه عرفوا أنه قد فارق الحياة!

صاح نبيه وقد أسند يديه أرضًا وأقام قدميه: **الأخ قتل أخاه؟!**

أكمل قطنبة: **القاتل هام على وجهه وظل يخمش خديه ونادى: "سب أخاه واتهمه في دينه فقتلته. ملعونة الدنيا إن سب الأخ أخاه. أخوه الذي حملته ذات البطن التي حملته، وأرضعه نفس الصدر الذي أرضعه".**

سأل نبيه: **والشيخ عليش؛ ماذا فعل؟**

- الشيخ عليش غاب عن البلدة، وطاف كثيرًا وجاب البلدان حتى أتى إلى أصفون يلبس المرقعات وينادي في الظلمات: الله، الله.

نبيه لتوه قد أفاق من دهشته: **ماذا قال لك في المنام؟!**

اشرأبت عنق قطنبة ونظر بعيدًا ثم قال:

- كان النور يتعلق بمرقعته، وعصاه ووجهه. كان يخرج من بين ظلمة قاتمة. قال لي الدنيا هينة غير بعيدة. ستقابل شيخي يومًا ما. ثم ولى عني كأنه لا يراني وصاح بصياحه المعتاد.



وفي القاعة الخارجية في دار عزيز الجاوي اجتمع كل الرجال؛ أتوا من دروب أصفون. القاعة رحبة لكنها لا تسعهم جميعًا في وقت واحد فقسموا أنفسهم مجموعات؛ بعضهم ينتظر في الخارج، والآخرون يدخلون لا تنتظمهم صفوف محددة؛ إنما كانوا شعثًا يلتقمون المطعومات التي نثرها الخدم على الأسمطة. كان ثمة شواء: لحوم ضأن، وماعز، وجِمال. ديوك رومية حمّروها بدِهْن ساخن. في نقطة ما في فضاء البلدة، قريبًا من الدار، كانت ثمة أدخنة تلتقي متصاعدة في الجو؛ هناك حيث قدور الطبخ والشواء منصوبة.

خارج القاعة، وسط الجموع المنتظرة، كان غلمان قد أمسكوا بأباريق نحاسية؛ بعضها فيه ماء صافٍ، والآخر فيه ماء ورد. كانوا يصبون منها على من يبغي تنظيف يديه بعد الانتهاء من الأكل. يقدُمُ عزيز إليهم. هو رجل ربعة الجسد، بضّ الوجنتين، وفي عينيه جحوظ ملحوظ. سلّم عليهم، وعلى صغارهم. عانقوه وباركوا زيجته ثم أدخلهم إلى القاعة بعدما أعيد ترتيب السماط لهم من جديد.

أولئك الذين انتهوا من طعامهم وغسلهم انتحوا في قاعات أخرى في جوانب الدار، تطوف عليهم أكواب النعناع الساخن. يرتشفون ويبدأون الحكايا. حكايا الدروب الضيقة المهجورة في هذه الساعة من النهار. يا سبحان الله، لا حديث يهمهم –وهم في فرح الرجل – سوى الكلام عن الحرب وعمن غادروا إلى وادي الغزلان. أحدهم يهتف بأن الموجودين هناك سيعودون خاسرين، وقال في معرض تعليله لذلك: **لن يقدروا على حيل المماليك ومكرهم الذي لا نهاية له، ولا عددهم الذي لا انتهاء له.** آخر يشيح عنه بوجهه مبديًا معارضته على ما قاله: **كم من**

فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، والعربان أشد بأسًا وأثبت عقيدة. يبدأ عندها التصايح وتتمازج كلماتهم:

أفلح الهادي وسليم..

سينتصر العربان..

لا مماليك بعد الحين...

العربان هم الأسياد.

الصياح المتتابع المختلط أتى بمريم إلى شرفة الدار العلوية. أطلت بنظرة على الجمع وأدارت وجهها نحو مدخل القاعة فإذا بابنها وقد انخطف وجهه بعدما سمع كلام القوم. قالت لنفسها: يأكلون طعامنا ويتكلمون بما يسمُ بدننا. بلدنا بلد كلام.

معزولٌ أنت يا عزيز، حتى في أحاديث من يحضرون عرسك، ويأكلون من خيرك، ويتسامرون على فُرُشك. هكذا الجزاء يا فتى، ذق فإنك أنت من اخترت طريقًا غير طريق أهلك وسبيل قومك. اكتم حنقك لمّا تسمع سيرة الهادي وسليم، وتهيج في قلبك ذكريات الظفر الخائب بمباركة الجوهرة المصونة. اكتم غضبك عن أحاديث الحاضرين. احبس كل خلجاتك عن الوجود فما لك حق في إظهارها اليوم وقد أبعدتها عنهم دهرًا من قبل. الآن تدمع جوارحك وقد فارقت من قبل، وهجرت، وانعزلت. لئن كان العربان يأكلون من ذبائح قد أعددتها لعرسك، ويحتسون النعناع يدفئون به ألسنتهم في ليلة باردة كهذه، ويتبادلون السمر ها هنا في قاعة دارك، لئن كانوا يفعلون كل

ذلك فإنما عقابهم لك قاسٍ عادل. هكذا العربان يا عزيز يتجاهلون زمنًا، غير أنهم لا ينسون. ولما تتملكك السطوة والغضب، ويركبك العناد تعزم على ألا تعود، وتصمم على أن تكون عزيزًا الذي يعرفونه لا من يريدونه. وتصيح لما ترى قطنبة قد دخل المجلس: **دعونا من سيرة الحرب، فقد حان وقت المرح والأشعار.**

وكانت هي الكلمة، إذ تكوم الناس فوق بعضهم مسرعين إلى القاعة الخارجية المتسعة. أُتي بكرسيٍّ من الخيزران وثبتوه في منتصف أرضها، وجلس عليه قطنبة الذي نسي أنه منذ ساعة أو أقل كان يهيم حيرة بذكر الشيخ عليش. الناس من حوله قد أقعوا على الأرض متلهفين إلى قوله. عدل قطنبة عمامته وتنحنح. صاح رجل من طرف قصي: **أنشدنا من شعرك في الغزل.** قاطعه آخر: **لا لا. بل شعرك الذي قلته في حضرة الوالي.** قطنبة تبسم بسمة بلهاء تصنعها وهو يهز رأسه، وأشار إليهم بيده أن اصمتوا فهتف بهم آخر: **دعوه وشأنه. أطربنا يا صاحب الطرب. أطربنا.**

ثبّت قطنبة نفسه على الكرسي وتحسس ما تحت أذنيه ثم أنشد:

سَبَت فؤادي المعنَّى من تثنيها

فتانةٌ كل حسنٍ مجمع فيها

كان ينطق كل حرف بتأن كأنما يجذبه بحبل متين من بئر سحيقة، ولما نطق الألف في "فيها" صاح الحضور مهللين معجبين. ارتقى صوت أحدهم فوق الباقين: **الله، الله. أكمل يا أسير الفاتنات.**

خطف قطنبة إليه بنظرة، ورقّص له رمشًا وارتسم ببسمة فجرت منهم ينابيع القهقهة. ذات الرجل من الطرف القصي عاود صياحه: **بل شعرك الذي قلته في حضرة الوالي.** لم يلتفت إليه قطنبة وأكمل:

سبت فؤادي المعنى من تثنيها

فتانة كل حســنٍ مجمـع فيها

أنسية مثل شمس الأفق قد بزغت

وحشية في نفور وخوف واشيها

وعلى حين غفلة منهم وهم يتصايحون ويتهافتون أخذ نفسًا عميقًا كأنه يتهيأ للنط تحت الماء. ارتعشت رقبته ثم زعق بصوت منكر:

حديث جرى يا مالك الرق واشتهر

بأصفون مأوى كل من ضل أو كفر[١]

صوت دوى وسط الضحكات: **قلنا لك شعرًا من الغزل لا شعرًا من الشتائم لنا.** رد عليه آخر على شاربه أثر فتافيت أكل ويضحك: **كان المقصود الناظر آيتمش الآمدي وليس نحن. يا ناس افهموا.** أصوات المعترضين تخالطت. ميّز الحاضرون منها رجلًا يحاجج: **إذا كـــان الأمــر**

١ - مطلع قصيدة قالها قطنبة في ذم ناظر أصفون وأهلها بسبب خلافٍ نشب فيما مضى بينه وبينهم، وانحاز الناظر إلهم ضده.

كذلك فماذا نحن فاعلون بالبيت الذي بعده؛ إذ قال فيه:

لهم منهــم داعٍ كتيس معمم

وحسبك من تيس تولى على بقر

"قل لهم يا عباس يا أخي. قل لهم لعلهم لا يعرفون أنهم بقر".

لكن صياح المعجبين علا وطغى، واختلط بزغاريد النسوة وأهازيجهن على الدفوف من داخل الدار. وتخلل من بين كل هذا ضحكات جلجلت المكان؛ ممن اعترضوا على شعر قطنبة، ومن غلمان عزيز، ومن عزيز ذاته الذي اتخذ له مجلسًا يليق بأبهته. الفرح جميل يا عربان، حتى لو كان لعزيز الجاوي. ما أجمل البهجة المرسومة على الوجوه، وما أحلى جري الصبية في كل مكان يتلهّون بالعراك على قطع اللحم الممنوحة لهم، ويملؤون الآفاق بصراخهم.

أنصت الرجال من جديد إلى قطنبة الذي استبدل الشعر بقصة يرويها:

في غابر الزمان. كان هنالك رجل لم ينجب رغم أنه متزوجٌ منذ عشرين عامًا. كان ورعًا يكثر من أعمال البر والإحسان. لفّ وزوجه على كل الحكماء والأطباء والمشايخ والسحرة والكهان، وما وجد للداء دواء. واستعصت الكربة على الفرج. وذات ليلةٍ اعتراه هم وغم. واختلى بنفسه حزينًا مجروح الفؤاد. ولما طالت خلوته راودت الظنون زوجه؛ فطرقت الباب. لم يرد. طرقت وطرقت، ولم يرد أيضًا. همت إلى إخوانها فنقلت لهم قلقها وفزعها. سريعًا هرولوا إلى

دار الرجل، وحطموا باب الغرفة. فوجدوه نائمًا تتردد أنفاسه بهدوء وانتظام. قالت المرأة: حمدًا لله أنه حي يرزق. ونادته باسمه فما استجاب. وراعهم أن انتفاخًا أسفل بطنه ينتصب إلى الأعلى. يصنع كالعصا المتحنطة في ثوبه. يا رجل قم، رُد. وكزوه في صدره، وكبروا في أذنيه فما استجاب. ولما استمر غياب الرجل عن دنياه وجدوا في أنفسهم حرجًا أن يخبروا أحدًا بالأمر. وانتبه أحدهم فجأة مقترحًا: فلنتوضأ ونصلي لله ركعتين، ولندعوه. وهم منهمرون في أدعيتهم طُرق الباب. صوت رجل عجوز ناداهم: افتحوا يا أهل الدار. ولما كشف له صاحب الفكرة الحجاب ألفاه في ثيابٍ رثة بالية، ويتكئ على عصا. وله لحية شعثاء. كلمة واحدة قالها ومضى: دعوا معه زوجه، ولتجامعه؛ فتهدأ العصا، ويعود الغائب إلى دنياه، ويكتب الله لهما الفرج. ولما لم يكن أمامهم من خيار. فقد فعلوا يا سامعين ما أرشدهم إليه الرجل. وخرجت إليهم أختهم بعد ساعة من الزمن مرهقةً، يتفصد العرق من جبينها وقالت: لقد زال عنه ما كان يعتريه. وبعد أن مرت على الحادثة تسعة أشهر بالتمام والكمال وضعت الزوجة طفلًا بهي الطلعة سماه أبوه عبد الوهاب.

تنهد قطنبة في تأثر ثم لم يتوانَ عن أن يضع صنعته على الحكاية: توبوا إلى الله يا أهل أصفون يرزقكم الله كما رزق الرجل ونصب عصاه فغرسها فأثمر غراسها.



أما إشراق فقد كانت في كل معاشها؛ صحوها ونومها، لا يفارق طيفها حضور الثلاثة الغائبين. كل صبح تفيق من نومها الذي صار طيفًا خفيفًا منذ رحلوا، ولم تعد مشاق النهار تعمّقه. تفرك النوم عن عينيها باكرًا لتودع آخر خيوط الليل بأسى ولوعة، تشد حزمتها حول خصرها بكل ما أوتيت من قوة كأنها تدوس على كل بقع الوجع بروحها فلا تجد سوى الهادي حاضرًا في كل لفتة ولمحة. تقف على عتبة الدار والدرب أمامها خالٍ لم تحطّ فيه قدمٌ، فتدعوه بصمت أن يعود. **ألا فلتعد يا هادي، ولا تُطل الغياب**. تجده في صمتها المطبق لحظة مرور أحد البكور عليها ومروقه في الدرب كالسهم ملقيًا عليها تحية الصباح: **"صباحك طيب يا أم يونس"**، وهي لا ترد؛ فقد كانت قسمات وجه الغائب تشغلها في كل وقت؛ وقت قعودها أمام فرن الطين تلقمها بقايا من قصر الملّ لتزيد نارها التهابًا فتتذكر غضبه الذي لا يقاوم في الحق. وفي سجودها تكون الدعوات كلها من أجله.

تتذكر لحظة فراقهم أصفون وكيف أن الرجال قد تجمعوا أمام دار الهادي: الشيخ الفضل ومعه وفد الدورية الكبير، سليم يمتطي فرسه، ويونس فلذة كبدها تتقطع فوق فرس أشهب، ورجال مبعثرون من قبائل عدة أخرى قد أغرتهم الحرب بأن يُذكروا بين العباد. كانت إشراق تقف على عتبة دارها تحبس بوح عيونها وتصيح لهم: **يصبحكم ويربحكم وبين العباد ما يفضحكم**. أرخت ظهرها إلى الجدار عند الباب فصرّ طرفه. بكت دونما صوت وتذكرت آخر ليلة قبل سماعها الخبر؛ حيث قضتها معه. تحادثا طويلًا؛ إلى الحد الذي كانت الكلمات تطلع من

أبعد نقطة في روحيهما، يملؤها الحنان؛ كل حنان الدنيا ورقتها، ويغلفها ألم الرحيل. عن البكرية؛ مباركة وقت أن كانت تحبو وتتعثر بين ردهات الدار حتى كبرت وغضّ عودها وصارت زوجةً لرجل؛ ولا كل الرجال. وعن يونسٍ باحا بكل شيء. أخبرته بذلك اليوم الذي كان فيه ابنهما الحبيب لم يزل بعد صبيًا وقد جاء إليها يلهث وفي نفسٍ واحد صاح: **أمي. إني أحب طاهرة بنت جارنا راضي بن جعفر.** كانت إشراق تظن أنها بذلك تذيع سرًا لا يعرفه الهادي، ولقد اندهشت لما أخبرها بكل رتابة أنه يعرف: **أعلم ما أصاب الفتى يا إشراق؛ فالعاشق تفضحه عيونه!** ولما أحسا بثقل الليل عليهما أخذ عليها عهدًا إن أذن الله بكرمٍ هذه الليلة فلتتعاهده بما يسره: **كما لو أنني حي يا إشراق. العهد يا إشراق؛ فصونيه.** فزعت لما رأت تلميحات الموت في طيات كلامه واندهشت للسيرة. حنت ورقت في كلامها لكنه حينها ذكرها فقط بصون العهد ورمي الحمول على الله وأطفأ بنفخة منه السراج المضيء، وبكل إخلاصٍ راح يبذر فيها بذوره الطيبة، ولم يطلع الصبح إلا وقد أدرك أن الحصاد مبشرٌ بالخير.

كانت قد حطت على الأرض، ودموعها قد أغرقت خديها. نشجت: **يا هادي، يا يونس، يا سليم.** عند يونس توقفت ثم رددت اسمه مرارًا: **ارجع من أجلي، من أجل التي خطبتها وتنتظرك في بيت أبيها قد حرمت على نفسها كل زينة، وكل عرس.**



وطاهرة ساهمة في غرفتها. بخاطرها قد انعزلت عن عرس عزيز الجاوي وفتيات البلدة قد مررن عليها يرغبن في اصطحابها معهن. تجلس على الشوار وترسل بصرها عبر كوةٍ في الحائط إلى نجوم الليل التي تغامزت أضواؤها كأنها جمع عشاق عذبه الهوى.

تُرى كيفك الحين يا يونس!

هي تتساءل وكل ذرة في كيانها تود أن لو رحلت مع هواها المتجسد في زينة الشباب، وعز رجال البلدة. آهٍ لو أن أباها ما زال حيًا؛ ورب المشارق والمغارب ما كان ليتخلف عن الركب. بحق تلك المرأة التي ما تبرح قاعة الدار وهي تبكي بدل الدموع دمًا أن تدور يا زمان دورتك ولا تبطئ. بحق أمي التي ما زالت وفيةً لزوجها الراحل لا تتأخر عن الموعد يا يونس.

أين أنت الآن؟!

أجتزت الصحاري والقفاري أم أنك ما زلت منبسطًا في الوديان؟!

أأحدثت بك عطفات الطريق دوارًا كالذي يصيب المبحرين على ظهر سفينة في البحر المظلم؟! أم أنك صرت قائد السرب ودليلهم كالبدر وسط العتمة؟!

أنسيتني للحظة؟! أم يفعل الشوق بك كما يفعل بي!

آهٍ يا بهجة الحب الطاهر، وزهرة الهوى السامي. يا للقياك الأول يا يونس. أما تذكر أول وهلةٍ إذ نظرتني ونظرتك عند عطفة الخطيب على

مشارف البلدة، وكنتُ حينها ألهو مع فتيات من مثل سني، وأنت صبيٌّ على جوادك كأنك أشد فارس في أبهى طلعة. كانت نظرة طويلة، طويلة جدًا. كنا ننظرها ونحن ندرك أنها الأولى والأخيرة؛ فما الحب إلا نظرة واحدة؛ تسبر أغوارنا وتكشف على ملئنا كل الحقائق والأسرار. الحب هو نظرة القلب للقلب، وشغاف الجوانح تعانق مثيلتها. هو لقاء روحين؛ وما أعذبه من لقاء؛ كنا ننثر فيه الأماني الحلوة، والرغبات العذبة على كل الوجود. كنتَ تتأملني وأتأملك دون أن نتلامس أو حتى نتقارب؛ بل حتى دون أن نقتنص نظرةً غير الأولى التي طُبعت في مكنون القلبين. هذا هو الحب يا يونس؛ هذا هو حب العفة واليقين بأن ما عند الله خيرٌ وأبقى؛ حبٌ لا تدركه قصة عنترة وعبل، أو ليلى ومجنونها. من يكونوا هؤلاء إذا ما وضعوا بجانب عالمنا النقي، الشذيّ، العاقل!

ما نعيشه لا وصف له. خبرني أنت عن صفةٍ ننعته بها، صفة تطابق حالنا، وتعاين خبرنا. إنه – والله – لأسمى من الحب الذي صار مضغة تلوكها كل الألسنة الجوعى. هل في كل اللغات من ألفاظٍ تسع ما نحن عليه؟! حتى النظرة. النظرة؛ كنا نستحي منها وهي تطاردنا، ترجونا أن نرسلها من لحظٍ إلى لحظ، ونحن نترفع عنها ونسمو عليها؛ فكم من حبٍ أتلفته النظرات.

واليوم كبرتْ. كبرت يا نظرتي التي لم أنظرها، وبسمتي التي لم ترها. كبرت ورحت لقتال المماليك. المماليك مرة واحدة يا يونس. قسى عليك وعليّ الهادي لما اصطحبك معه.

وظلت طاهرة هكذا تناجي النجوم في صمت، يخيل إليها أنها تخالطها نفس الأوجاع والهموم كلما خفتت أضواؤها عن بعد.



في تلك الأثناء كان ركب أصفون يشق طريقه نحو وادي الغزلان. كلما بدا نور النهار يأوون إلى مفازة قريبة وينصبون خيامهم فيها ويستسلمون لنوم عميق. كانوا يبتعدون عن أهل الوادي لئلا تطلّع إليهم عينٌ من عيون المماليك التي زرعوها في الصعيد واشتروها بالدنيء والغالي من مخادع الدنيا. وحينما تميل الدنيا إلى الإظلام كانوا ينزلون قليلًا وينشطون ويسلكون المدقات بعيدًا عن نقاط تواجد الناس ومحال سكنهم.

ومن دون كل الركب؛ لم يكن سليم ينام من نهاره إلا قليلًا إذ كان يصحب معه رقاع جلدٍ، وقلم بوص مشذب، ودواة حبر عتيق. كان يدون كل ما تقع عليه عينه في هذا الترحال، وما يجيش بذهنه ويختلط بصدره من خواطر الذكرى. كتب عن عدد الرجال معه، وعدد الأحصنة، وما معهم من متاع وعتاد. عن البلدان التي مروا بعيدًا عنها وخشوها كأنها أفاعي ليل مغرق. عن الكثبان الرملية التي داست أقدامهم عليها لما رأوا أن يتخففوا عن خيولهم عند المرور بها. عن الليل الذي يطغى عليهم فيحيلهم وحوشًا برية لا تنشط إلا في الظلام. عن الأضواء التي تتلألأ من بعيد ناحية الشرق؛ أضواء البلدان وسط الظلام كنقط صنعها إبريق لبن مثقوب في ثوب أسود، والفضل يقول: **لقد ابتعدنا عن العمران كثيرًا**. ويرد عليه الهادي عدنان: **كلما ابتعدنا عن الناس وكتمنا أمرنا نجونا.** تزوغ عينا الفضل ويدون سليم أنه لاحظ ارتعاش شفتي شيخ الدورية.

كتب سليم عن أبيه الذي فارق الدنيا قبل أن يدلف هو إليها، لكم أحب ذلك الوجه الذي تخيله له، وقبّله ألف قبلة في الهواء. كتب عن أمه التي ماتت فيه، حكوا له أن صرخة الطلق الأولى خرجت منها مع روحها. ذات نهار وهو راقد في ظل كثيب ملتهب يفترش بردةً رش عليها بعض ماء؛ أمسك القلم وغمسه في الدواة وخط بيده: **مسكين أنا، كيف عشت طوال هذه السنين وأنا مبتور الأب والأم**. بدرت منه دمعة فتذكر خالته التي تولت رعايته وتربيته. ازدرد ريقه فأحس كأن طعم لبن الجمال – الذي شربه بدل لبن أمه الراحلة – يطبع حنكه حتى الحين. أكمل الكتابة: **تقاذفتني الدنيا على صخور شطآنها وأنا صامد كقطعة الحديد المثبتة في مقدمة المركب؛ لا يفتتها موج**. لم ينس مباركة؛ حبه السرمدي، ولهفته الأبدية. تلك التي صارت ذاته ومرآته: ما من حسن يبين منه إلا ولها يد فيه، وما من عيب لديه إلا وقد كشفته له وأجلته عنه. كتب عن ذلك اليوم الذي أخبرته فيه بحملها؛ طار من الفرحة، وتعلق بخشبة مثبتة في السقف وظل يمرجح جسده في الهواء كالصبية في صبيحة يوم العيد. كان يقهقه ومباركة تملأ فراغ باب الغرفة وتواري وجهها بيدها من شدة الضحك. لم يهتم بالدم الذي نزف من باطن يده التي احتكت بالخشبة؛ هو أصلًا لم يشعر بالنزف. سقط على الأرض ثم تقافز بسرعة على أرائك الدار في فرح من الجنون قريب. ولما هدأ أعلن لها رغبته في أن يصير الولد أميرًا عظيم الشأن كحصن الدين أو كالأحدب ابن واصل، يحارب المماليك ويخوض الحرب ضدهم لتخليص كل بر مصر منهم. وهي تعارضه في لطف، وترتسم على وجهها كل علامات الرجاء بأن ينزع عن تفكيره هذا التدبير: **ماذا لو لم يكن ولدًا يا سليم؟ كيف الحال لو نزلت بنتًا؟!**

مازحها في مرح: **لا عليكِ. تصير إذًا أميرة.** وهي ترد المزحة بدلالٍ وتنغزه بقبضة كفها في صدره برقة: **أتمزح في مقام الأمراء والأميرات يا رجل! ثم إنني أحبذ أن يصير تاجرًا واسع الثراء هانئ البال وأن يبعد عن عوالم الحرب وطرق المقاومة. ثم من يدري يا سليم. قد يجعل الله من كل ضيق المماليك فرجًا قريبًا قبل أن يأتي هو.**

اليوم وهو في هذه الصحراء المكفهرة يصب لعنات متتاليات على المماليك، ويسأل نفسه: **ماذا تكون نهاية الحرب؟ لن يتخلى الله عنّا.** يخط بيده جملة أخيرة: **قد يجعل الله من كل ضيق المماليك فرجًا قريبًا قبل أن يأتي هو، حتى لو لم آتِ أنا يا مباركة.**

مسكينٌ لم يكن يدري أن من بين ثنايا الحب تولد أوجاع وأوجاع. لحظات وينادي رجل: **باقي على وادي الغزلان ساعة زمن.**



الأحـــــدب

أجلس في خيمتي المستطيلة، لها قباب، ومفروشة بسجاد بين البِلى والتمام. أُبعدُ رجليَّ عن جسدي الضخم، وأمددهما أمامي، ثم أعبث في لحيتي عبث الخلخلة والتهذيب. أنا زعيم العربان كلهم؛ من أول الفيوم حتى شلالات أسوان؛ حيث يسكن بنو كنز. يبقى على تحقق الحلم الكبير ساعة زمن؛ ساعةً نثبت فيها كالجبال، ونصبر فيها صبر الرجال ولا نبخل بالدماء والأرواح. ثم يكون لنا الملك من بعد هؤلاء المماليك. أرسلت برسائلي إلى عربان الفيوم والواحات أن **اتركوها وجوسوا خلال ديار البحيرة، انتظروا حتى تقوم الحرب واسعوا بين الناس تحرضونهم على العصيان. في البحيرة بقايا عربان، وبقايا تاريخ لنا تركناه ابعثوا فيه الحياة، وأوقدوا منه الشعلة التي تحرر العامة من حكم الطغيان. إن نفوس الناس فيها غصص كثيرة لكن يوقفهم عن الثورة كره المخاطرة وضعف الدافع، وهذا دوركم. اجعلوا لهم من المخاطرة نصرًا محققًا ورصوا لهم من الدوافع سجلات وسجلات حتى تقوى هممهم ويكونوا في أيديكم طيعين لينين. المهم هو الوقت؛ لا تقوموا بمهامكم قبل اندلاع الحرب؛ لا قبل ذلك ولا بعد ذلك. تندلع الحرب فتنشطون. واجعلوا خطواتكم سريعة سريعة ونقّلوا أماكن وجودكم حتى لا يُقبض عليكم.** هكذا أمرت، ووردني ما يفيد الامتثال. غير أن عيوني قد رصدوا أن أخبار فرار عربان الفيوم والواحات إلى البحيرة قد وصلت إلى آذان القلعة. وأن السلطان قد

أوفد الأمير أزدمر ضبطًا للنظام، وتحفظًا على كل اللئام الذين يخشى منهم تأليب العامة إذا ما استعرت الحرب. الحمد لله أني ما استكنت إلى نظام الرسائل وأني أضفت إلى أصناف رجالي صنفًا لا تراه العيون، ويرصد كل حركة من حولهم، فكما أن للمماليك بصاصين فإن لي بصاصين، ولولاهم ما عرفتُ النكبة التي حلت بترتيبي للوجه البحري. وردت الأخبار تفيد أن طاز وصرغتمش على رأس تجريدة عددها لا يزيد بحال عن ستة آلاف مقاتل. اليوم، بعد أن يصل وفد أصفون ووفد البهنسا نكمل – نحن العربان – العشرة آلاف مقاتل وقد نزيد. لم تفلح عيوني في رصد أية تحركات أخرى من خلف هذه التجريدة. فقط ذُكر أن طبول المنادين زعقت في البحيرة مهددة ومتوعدة كل من يؤوي عربيًا فارًا من قبلي، وأن حصيلة وفادة أزدمر إلى هناك كانت ثلاثمائة وخمسون رجلًا من طويلي الألسنة؛ أُخذوا إلى سجن القلعة، وستمائة وأربعون فرسًا جمعت من بلاد الوجه البحري وسيقت إلى الإسطبلات السلطانية؛ حتى لا تقع في يد موتور أو متمرد يقتحم بها مواطن حاميات البلدان. وصدرت المكاتيب للقضاة أن يركبوا البغال والأكاديش بعد أن صارت الخيل عزيزة. كل الدهاء وُضع في تدبير المماليك؛ فكل شيء تم الاحتياط له. حتى الخيل، ولو وصل بهم الأمر لأن يضعوا في حسبانهم فضلات البهائم التي يبّستها الشمس والتي قد تكون مصدرًا لنيران حامية على قصورهم لفعلوا. وإني لفاعلٌ بهم ذلك بعدما يمكنني الله منهم. سيُطردوا شرد طردة، ولن يكون على البر سوانا؛ من كابدْنا ألم العزلة والقهر – نحن وجدودنا – على أرضنا.

ها هو علي بن ناصر شيخ العربان ببلاد أخميم، وساعدي الأيمن

يدخل الخيمة. أنتصب واقفًا وأتقدم بضع خطوات حتى أستقبله. التقينا في منتصف الخيمة ووجدته مهمومًا فبادرته:

ما بال الشيخ؟ هم الدنيا مطبق عليك ويعلو وجهك!

أجابني: **يهمني ويحيل عقلي شتاتًا لا يجتمع أبدًا، أمر رؤوس العربان يا زعيمهم.**

أذلك وقته؟ بيننا وبين العدو مسيرة زمن يسير جدًا، وعلي بدأ يخاف. ربتُ على كتفه وقلت:

الموت علينا حق يا شيخ علي. أتاك بضربة سيف أو بطعنة رمح أو حتى بعلّة مرض على فراش النوم. نحن نجاهد، نجاهد الظالمين ونقاوم حكمهم. وخير الجهاد كلمة حق في وجه سلطان جائر، والسيف لمن طغى وعلينا بغى.

تأثر وجهه. في الخارج أصوات سمر. التفت عني ثم أعطاني شطر جسده وضم قبضة يده وقال:

تعب الأيام يا محمد. لقد كنت معك وقت أن جبناها واديًا واديًا. لم ندع مسلكًا إلا وطرقناه، أو سبيلًا إلا وقد وطئناه. واجهنا الجند والموت في كل شبر في الصعيد. قاتلنا حاميات المماليك في الصعيد الأعلى، وحاصرناهم في غير ذي موضع. وأدّبنا المصريين الذين كانوا يتعاملون معهم ويعينونهم علينا. خربوا كفورهم ونجوعهم بأيديهم وبأيدينا. حاصرتنا أمطار الشتاء وزمهريره، وشمس الصيف الفتاكة. وسَطَت أوبئة الخوف والهلع على كثير ممن كانوا معنا. وبقينا نتنفس

ونحيا لتقول لي اليوم: الموت. لا تطلع هذه الكلمة منك يا شيخ محمد. ما الموت أخشى أو له أهتم.

سارعته بالسؤال: **مما تخشى إذًا؟!**

قال: **إنما يذهب النوم عن جفوني والراحة عن بالي أن تُنكس هذه الرؤوس ولا تقدر أن ترفع هامتها عمّا قريب.**

تنهد بعد وصلة الكلام هذه، ثم أكمل وقد صار وجهه في وجهي: **ماذا تُبقي لنا هذه الحرب؟!**

صرخت فيه: **تُبقي لنا الكرامة والعزة. وذهاب الخضوع للبشر دونما رجعة.**

رد عليّ بسرعة أدهشتني: **وماذا تفيد الكرامة رؤوسًا تُقطع، أو أجسادًا تُسحل ثم تلقى كي تقتات عليها الجوارح والغربان. ماذا تفعل الكرامة للموتى؟!**

حملقت فيه وقد غضبت: **ماذا تقول؟**

بادلني بسؤال: **ومن أدرانا أننا سننتصر على المماليك؟ هذا أمر في علم الغيب.**

عاودت صراخي بعدما أمسكت بكتفيه أهزه:

سننتصر لأننا على الحق. لأننا المظلومون، والله لا يتخلى عن المقهورين. سننتصر ونقول للدنيا كلها أنّا أنتصرنا.

لم يتعب بعد، وسألني بلهفة ووجع: **وإن لم يحدث؟!**

أجبته على الفور: **يكتب الله لنا موتًا تتخلد به السير، وتُحكى عنه القصص.**

كانت هنالك أصوات في الخارج قد علت. يظهر والله أعلم أن وفد البهنسا قد وصل. علي أخيرًا صمت ثم انصرف. أرخيت أذني من خلف ستار الخيمة فدوى فيها صوت لأحد العربان: الحكم والملك لنا. ثم رأت عيني من بين ستارين – بينهما ارتخاء – شابًا؛ في العشرين من عمره يقف على ربوة بارزة ويخطب في الناس فيقول:

"أنا عبد الله، من البهنسا. لما قرب دخول التجريدة على بلدتنا خرجنا أنا وخمسون رجلًا. كانت الأخبار تنقل لنا أنهم يقصدون البهنسا قبضًا على رجالها، وإرسالهم إلى سجن القلعة بعدما سمعوا من هبتنا نحو معسكركم المبارك. في البدء انقسم الرأي؛ قال رجال نسرع الخطى، وكثيرون رأوا بأن البقاء أوجب حفظًا للنساء والولدان. لكن مع كلمات النسوة ورجائهن تقلد كل منا سيفه وجعبة سهامه وامتطى ركوبته وغادرنا. عند موضع في الصحراء لا يُسمع فيه شيء إلا ثغاء خافت لأغنام ترعى من بعيد جدًا، انتحينا جانبًا. بانت من الرجال لواعج الجوى، وجرت من بعضهم دموع الأبوة الصادقة، وشهقات الفراق الحزين.

لم يكن أحدٌ منا يدري ما العمل، وها هم يتكرر نفس فعلهم هنا كما صنعوا عند تلك البقعة الجافة من الأرض (أشار بيده نحو رفاقه الذين كانوا قد انزووا تترقرق دموعهم). اقترحت عليهم أن أعود وألبد في مداخل البلدة لأرى ما يُحدِثُ المماليك في أهلنا. قلت أني لست بمتزوج، ولئن شابني قلق فلن يكون كقلق الآباء على

أبنائهم أو الرجال على زوجاتهم. سأذهب وأعود لألحق بكم وأطمئنكم. وبالفعل، ذهبت ولحقت بهم قبل أن يصلوا المعسكر بيوم، لكني ما أخبرتهم الحقيقة. بأي لسانٍ أخبرهم عن النسوة والصبية وهم يساقون مهانين؟ بأي وجه أصف لهم صرخاتهم المبحوحة، وكيف لي أن أفسر عجزي؛ وأنا الوحيد هناك، لا رفيق، ولا عتاد أواجه به هؤلاء. وأنا ما دهاني كي أذهب؟ لم تكن أمامي سوى رغبة واحدة؛ هي أن أبث أمانًا في قلوب رفاقي أن التجريدة مرت على البلدة ولم تمس ذويهم بشرّ، ولأجل ذلك لم أنطق بحرف عما رأيته.

كانت البهنسا أول ما دخلتها التجريدة تبين خاوية على عروشها. إلى أن لفت أنظارهم بيت زعيمنا إدريس بن زيد. دار منيفة ومتسعة. كأنهم استغربوا أن يوجد مثلها في بلاد الصعيد، فدخلوها. فتشوها حتى عثروا على كل نسوة البلد مع صبيانهن. انطلقت صرخات الأنفس المكتومة فاقتادوهم إلى الخارج. رصوهم صفوفًا فانعسكت أضواء المشاعل على جباه الأمهات، وبان عليها عرق الارتعاب والذعر، والصبية؛ ذكورًا وإناثًا يغمغمون متسائلين عن آبائهم. كان العسكر جامدين، وأنا في موقفي أتقطع وأتشتت بين قلبٍ يصرخ لي أن أرمي نفسي في أتونهم علني أنقذ العزل منهم، ويعللني بالشرف وبحماية الأعراض، وبين عقلٍ يكبح جماح القلب ويذكرني باستحالة المهمة. ما أقسى أن يقع المرء بين قلبه وعقله، وكلاهما على صواب. أمر صرغتمش أن تجلد كل حرمة وكل صبي عشرين جلدة حتى يدلوهم أين ذهب رجال البلدة. أبشركم أن نساءكم لم يرتضين

لأنفسهن قيمة أقل من الرجال. كل واحدة ذبت عن عيالها وأخذتهم في أحضانها وقلن: اجعلوا نصيبهم من الجلد لنا، ولن نخبركم على أي حال، أين ذهب الرجال. جلدوا الأولى، والثانية، والثالثة، حتى وصلوا إلى العاشرة؛ كل واحدة بنصيبها ونصيب عيالها. ولما أدرك العسكر اليأس قفلوا عن بلدكم مدحورين".

كل حركة في المعسكر قد سكنت. لم يظهر سوى أنين ضئيل من جهة مواضع رجال البهنسا. ثم زمجروا وأقسموا على الانتقام، وألا يبخلوا في الحرب بأي شيء. هذا هو المطلوب.



المغارة

والشيخ في مغارته لا يكل عن طقوسه. يواصل رحلته نحو التحقق بحقائق الوصول، وتتجلى عليه في كل يوم أنوار الأحدية؛ نورًا يعقبه نور. لا يلزمه بحد، ولا يحصره عدّ، ولا يباريه ضدٌ ولا ندّ. يبعث إليه الليل كل ما يذكي صبابته، وهو لا يتوب. في العشق الباقي يذوب، وروحه لا تنفك تجوب وتجوب. مدد يا صاحب المدد. مدد من غير عدد. مدد بركة وخير، ووصل بلا شر. مدد بحقائق أهل القرب، وسلوك بمسالك أهل الجذب.

"إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك. وهذا حالي لا يخفي عليك. منك أطلب الوصول إليك وبك أستدل عليك، فاهدني بنورك إليك وأقلني بصدق العبودية من يديك، إلهي علمني من علمك المخزون وصُني بسر اسمك المصون.

إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك. أيكون لغيرك من الظهور ما ليس بك حتى يكون هو المظهر لك. متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك. ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك. عميت عين لا تراك عليها رقيبًا وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبك نصيبًا.

إلهي أخرجني من ذل نفسي، وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي، بك انتصر فانصرني وعليك أتوكل فلا تكلني وإياك أسأل فلا

تخيبني وفي فضلك أرغب فلا تحرمني ولجنابك أنتسب فلا تبعدني وببابك أقف فلا تطردني". [1]

تستمر الدعوات والمناجاة لا يقطعها شيء. وسكب العبرات لا ينقطع. تتقد القريحة والشوق فيتولد الهيام، والهيام هو أبو الشعر، فيتذكر الشيخ شعرًا وينشده، وكل البرية تستمع إليه:

يا من تقاصر شكري عن أياديه

وكلّ كل لسانِ عـــن معاليه

وجـوده لم يزل فـردًا يلاشيه

علا عن الوقـت؛ ماضيــه وآنيه

لا دهر يخلقه. ولا قهـر يلحقه

لا كشف يظهـره، لا ستـر يخفيه

لا عد يجمــعه لا ضــد يمنعه

لا حد يقطعه لا قطـر يحـويه

لا كون يحصـره لا عين تبصره

وليس في الوهم معلـوم يضاهيه

جلالــه أزلـي لا زوال لـه

---

١ - كان الشيخ يناجي ربه بمناجاة الامام ابن عطاء الله السكندري؛ الذي أخذ الشيخ من تلاميذه الطريقة.

و ملكه دائــم لا شـيء يغنيـه[1]

وملكه دائم لا شيء يغنيه، ظلّ يرددها والعبرات تنهمر منه انهمارًا. مناجاته – والله – ترقق قلب أعتى عاصٍ على هذه الأرض. تحيله وليًا تقيًا. ما السر وراء ذلك الشيخ؟! ما العلة التي وراءه؟ ما مكنون كل ذلك الحزن المتكئ على راحات الماضي المجتث لديه ببلطة القدر القاطعة؟!

ولحظةً اعترته لمحة من ذلك الرجل الذي يهرب منه ويود أن لو يتخلص منه ويخلع ربقته، اختلاجة في قلب أعماق النفس، لم تتجاوز حدود ضلوع القلب. إي والله، فهو في البدء والمنتهى بشرٌ ككل البشر، وقد جلّ من لا يسهو، لكن هيهات فصغائر ذنوب الكبار في الخلوات كبائر.

تردد داخله هاجس غريب عن وقت الرحيل. ينهى النفس عن الهوى ويستعيذ بالله من شيطانه ويرجم النفس بحصوات الطاعة والتذلل، ويأتيه صوت يدوي في كل المغارة: هو ذات الصوت الذي لا يستغربه أو يستوحشه، والذي أتاه في المرة السابقة عند القربة المباركة أن توضأ. هذه المرة قال بحزم: **اصبر فإنك على موعد**! ومن فوره تتملكه رعشة شديدة، ويتكالب على جسده طوفان عرق لا حد لأمواجه، فيرقد متدثرًا بالأرض الرطبة وهو يردد:

العفو والمغفرة ... العفو والمغفرة



---

١ ـ أبيات للامام أبي القاسم القشيري حفظها الشيخ من إحدى جلسات الذكر التي ترأسها أبوه.

المعــــركة

دارت المعركة في عام ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ مـ

أصفون – دار عزيز بن بهي الجاوي

مرّ على عرس عزيز يومان بالتمام والكمال. اليوم يجلس على دكة عليها بساطٌ نُسج في إسنا، ومسند أنيق. كان أمام داره في فترة بين العصر والمغرب؛ الشمس بهية دافئة تحنو على الأرض المحمومة بالبرد. أمام الدار فسحة زرَعَ فيها أشجار الريحان والتين. الريحان ينفث رائحة شذية تجعل الفسحة قطعة من الجنة، والتين تتناوب على الاقتطاف من ثمره أيادي المارة وعابري السبيل. كان الضياء يغمر طلعته، والبشر يلفه من كل جانب؛ كأي عريس جديد ذاق حلاوة الشهد.

لكنَّ نفسه كانت قد مُلئت بالمقت للفريقين المتقاتلين. الناس في أصفون لا يقولون عن عزيز إلا أنه رجل تنكأ جراحه ذكرى الحب المنفرد الذي تلمّس طريقه إلى مباركة فوجدها حائطًا لا روح فيه. قالوا بأن المال صبغ نظرته للوجود حتى ظن أنّ بمقدور ما في الخزائن أن يخضع ما بداخل الصدور. زادوا في القول وكانوا صادقين أن قلوب الرجال لا يورثها الحقد والغيرة إلا تلك النظرات الخائبة والمشاعر المعزولة، ورغبةٌ في امرأة وجدت الصدود بدل الوصال عند أول لقاء. هذا كان مبلغهم من القول بعد العرس، وعزيز في كل أحواله لا يفارق وجهها خياله. الغالية بنت المتحذلق؛ التي تكبرت عليه وفضلت من هو دونه. كان يخاطب نفسه: **ماذا لو كنتِ ترضين يا متعجرفة؟ كل هذه الأموال كانت ستكون طوع يدك وفي خدمتك. كنت سأبني لك قصرًا لا مثيل له، ولسُقتُ إليك فاكهة الشتاء بالصيف، وفاكهة الصيف**

بالشتاء، ولأنفذتُ من أجلك القوافل تأتيني بأكرم الأحجار والمجوهرات أرصع بها جيدك. لكنتُ جاعلكِ ملكة تتسمين السلطانة لو أردتِ. لكنتُ، ولكنتُ، ولكنتُ... لكنكِ كفرتِ النعمة وقبلتِ السفلَ، وإني لمذيقكِ حزن القلب كما أذقتِ قلبي. فقط يأتي الأوان، وستعلمين. أوان رجوع مبعوثي إلى قادة التجريدة فيطرب له قلبي.

في داخل الدار كانت أمه تتمم على أعمال الخدم. أولئك الموكول إليهم شأن الطبخ والطعام تأكدت من اهتمامهم به، وأولئك الذين يتولون التنظيف وغسيل غرف الدار ونثر ماء الورد فيها تيقنت من انتهائهم منه. كل شيء على ما يرام. على أريكة في بهو الدار استراحت، قلبها ينتفض بشدة؛ تُرى بمَ يرجع خادمها الأمين عبد البر. لقد أقلقها أمر ابنها عزيز. كلامه معها البارحة هو الذي دفعها أن ترسل خادمها وراء رسوله حتى تعرف ماذا يفعل من ورائها ولا يخبرها به. راجعت حديثه الذي كان، دوّرته في دماغها وأعادته على عقلها مرات. حينها سألته: **أما زلت عند رأيك فيما بيننا وبين المماليك يا عزيز؟**

أجابها: **تقصدين الذي بين حزب الأحدب وفريق السلطان ومن وراءه من الأمراء. نعم أنا عند قولي واعتقادي.**

هتفتْ به: **ونحن والأحدب؛ من نكون، ولمن ننتسب؟! أيصير الدم ماءً أو تختلط به الأغيار فتفرقه يا ولدي؟**

وقتها أدرك أن كثيرًا من النجاة تكون في الجدل فردّ عليها: **أيًا كان الأمر. فريقان يحتشدان تحت رايتي باطل، ولقد وطنت نفسي منذ زمن ألا أتبع إلا من ظننت به الحق المطلق والصواب التام.**

هتفتْ به مرة أخرى وجسدها ينتفض: **والظلم يا عزيز. الظلم يا بني، أيكون مما تتفاوت فيه الأفهام ويختلف بشأن مقاومته أصحاب العقول؟**

رد: **إنْ الظلمُ إلا في عقول العربان، وإلا فأين هو؟**

أجابته وهي تحتد: **الظلم في حكم المماليك، ونحن نتصدى له وللقهر والاستعباد.**

كسكين حاد يقطع لحمًا غضًا قال: **أنتم تتصدون للدولة، وما انتصر من تصدى للدولة من قبل. أنتم تتحدون السلطان وتبغون الحكم. وما وفق الله بشرًا طلبوا العروش لأنفسهم.**

نظر من الشرفة إلى الشمس الغاربة فأبصر حمامةً تحاول إطعام صغيرها وهو ينفر منها ويقوم لينط من العش. أردف:

ثم أنا كتاجر؛ ما يعنيني في كل ما يحدث سوى أن أجد رواجًا لما أبيع وأكتال وأحوز. أمانًا ترفرف راياته على كل بر مصر فتسير فيه قوافلي في أعالي الجبال ومنحنيات الوديان.

ذلك الحديث دار في عقلها وهي على الأريكة ما زالت. كانت حركة الخدم من حولها قد خفتت، وبدأوا يلوذون إلى غرفهم نيلًا لبعض الراحة قبل دخول وقت الغداء. كانت مريم قد أدركت أن ابنها بذلك الحوار قد رسم حدودًا لأملها، ولأجل ذلك أرسلت عبد البر في إثر رسوله.

ثمة أقدام تخطو نحوها. ترفع بصرها فتجد عبد البر شاخصًا؛ بينه وبينها مقدار ذراع. توقف وطأطأ رأسه فانخلع قلبها. وقفت ودارت حوله وطلبت منه أن يحكي. أفضى إليها بما سمع ورأى. كانت الحروف تخرج

من فيه ثقيلةً ثقل جبال الشرق الممتدة من النيل إلى بحر القلزم، وصوته جاء كاسفًا ود أن لو تنشق الأرض فتبلعه.

في البداية انكتم صوتها. انحبس في جوفها كسجين طوقته جدران زنزانة. ذهب دم وجهها من الصدمة. ثم تقوست شفتاها إلى الأسفل وارتعدتا، وعلا حاجباها من أثر الوجع الذي حطّ عليها. صار وجهها جامعًا لمعانٍ شتى، ودلالات مختلفة. لا يجدر بالموقف الذي هي في عمقه سوى التضارب والاختلاف. رقّ منها عِرق الأم لحظة، وآهٍ من هكذا عرق. فيه الضعف والرحمة وإن أتيا في هيئة البطش، وفيه القسوة والجبروت وإن جاءا على منوال الحنان.

وراحت تسائل خادمها: **هل رأيت بعينك، هل سمعت بأُذُنِك؟ بل قل والله قد كان الأمر كما قلتْ. احلف بالله وكن برًا يا عبد البر. كن أمينًا في الحلف وفي النقل، ولا تعذب أمًا لا ابتلاك الله في ولدك.**

كلامها تتابع من ذلك العرق الذي تمدد رويدًا رويدًا في كل ذراتها. هي الأم مريم. الأم مريم ولا شيء غير ذلك. هبْ أنها ليست بعربية، قل أنها عجمية من بلاد الثلوج المستديمة أو حتى جارية تباع وتشترى من على دكة المماليك، أو سيدةً كانت يومًا عزيزةً في بلاد القفجاق. في جميع الأحوال وعند كل الأجناس هي أم. أم لعزيز الذي بانت خيانته لقومه!

أعاد عليها عبد البر كل ما حدث مرة أخرى، وثالثة. وهي لا تكاد تصدق. ارتمت على الأريكة فتلاشت الدار – بخدمها وفرشها وتراثها – من حولها. إلا صوت عبد البر الباكي: **ليت عبد البر لم يكن في عداد الأحياء قبل أن ترسليه لطلب الحقيقة.**

ساد الصمت وقتًا يسيرًا. ثم هبت واقفة وسألته:

وذاك الذي أرسله بالرسالة إلى قادة التجريدة؟

أجابها: **لقد قتلته. ما بَعُدَ مسيرة ميل عن التجريدة إلا وكنت قد أزهقت روحه. الخدم ألسنتهم لا يقيدها سر يا سيدتي. خشيت أن يعود فيزلف لسانه بالكلام وينفضح الأمر.**

تنهدت طويلًا وأطرقت إلى الأرض: **الآن ما عاد ينفع الكتمان يا عبد البر.**

صرفت خادمها عنها، واستسلمت لسيل كثيف من الأسئلة. لا أجوبة ولا هدأة لبال. همست وهي تبكي؛ أنا مريم المعذبة. لأعرفن منك القصة من أولها لآخرها يا عزيز، ولأطهرنّك بيدي من دنس الخيانة.



قلعة الجبل – القاعة الشرقية

كان السلطان على سريره رابط الجأش. نوافير قريبة منه ترجرج ماءها. زقزقة عصافير تتخلل النوافذ المعمولة من العاج. لا هدوء فثمة صياح نشب بين طاووسٍ وذلك الببغاء الهرم الذي لا يكف عن تقليد الأصوات. لا مملوك يمر، أو جارية مياسة القد تداعب أو تلاطف؛ فهو قد أمر ألا تقطع خلوته. أرخى جسده على السرير قليلًا ثم وقف وتمشى إلى كرسي ناحية إحدى النوافذ. زقزقة العصافير صارت أوضح وخفت صوت الشجار. جلس وصوب رأسه إلى السقف يتأمل نقوشه ورسومه. استرجع الأحداث التي وقعت في مثل هذه الساعة من نهار البارحة: في رحبة باب النحاس؛ حيث سلطنوه، اجتمع مرة أخرى جمع الأمراء والقضاة والعلماء. هذه المرة مجلس حرب؛ لبس الأمراء آلة الحرب. شُدّت الخيول من الإسطبلات. دوى صوت الكؤوسات تعلن بداية الحرب من القلعة. زعق النفير مرةً واحدة فركب فرسَه والصجنق من فوقه يرفرف. معه أمراء الحكم وأركانه؛ طاز، وشيخو، وصرغتمش. أتابك العسكر ومقدمو الألوف، والمئات، والعشرات. هدير الطبلخاناه استمر، وخطى المهرولين عبر جنبات القلعة تتابعت. هذا الاستعراض للقوة والعتاد تقليد متبع منذ أمد.

أوقف السلطان فرسه، فتنحى السنجقدار وسكن دوي الكؤوسات. توقفت دقات الطبلخاناه. وقف على الأرض فتقدم نحوه العلماء والقضاة، وكل واحد بما يجود عليه لسانه في هذه اللحظة:

بارك الله خطوكم يا سلطان البلاد.

هؤلاء عصاة مرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

لقد اختار أهل قبلي العدوان على مقام إمام أمور المسلمين فحق عليهم العقاب.

اللهم انصر جند سلطاننا وعساكر الدولة.

منذ البارحة لم تفارقه أصواتهم تؤمّن على الدعاء: اللهم انصر جند سلطاننا وعساكر الدولة. كانوا في غاية الحماسة والإخلاص يغيم على وجوههم، والله أدرى بقلوبهم ونياتهم.

ثم يعود السكون. قلّب نظرة فيهم فأيقن أن الهواء ما عاد قادرًا أن ينفذ من بين صفوف الجند المتراصين على مد البصر. لمح فيهم رضاءً بالمهمة وإقبالًا عليها. رضاءً استمدوه من دعاء العلماء والقضاة لهم.

مازالت كلمات شيخو تطن في عقله: **"مولاي السلطان، لقد دبر الأمراء ومعهم أتابك العسكر للأمر. رأوا أن يمكث مولانا هنا؛ بعيدًا عن الكر والفر وهم يكفونه الشأن. سنُقبّل نحو الصعيد بتجريدة قوامها ستة آلاف مقاتل..."**. هكذا فرضوا عليه الأمر، ولو كان سلطانًا بحق لامتنع. لو كان رجلًا بحق لرفض. هو الحين يفكر ويكاد يغلي ويجز على أسنانه لما تذكر أمه. ملك هي السبب فيما حل به؛ ألم تجد وسيلة لاعتلائه العرش سوى الاستعانة بهؤلاء الأمراء الذين لا يرون ابنها سلطانًا. لا يرونه إلا صبيًا. وأمه؛ بنت عظيم الأمراء غفر الله له، كيف تراه؟!

في عز الوساوس التي تعصف به تدخل عليه أمه. تهتف به:

غدًا تصل التجريدة إلى الصعيد يا سلطان البلاد.

يكسر عينيه نحوها: **فرحانةٌ يا أمي؟!**

- **بل مترقبة، مترصدة. لا فرح إلا يوم يُذلُ هؤلاء الرعاع.**

ألمّ به وجع كبير. هزأ من نفسه في صمت. ها هي فعلًا كما ظنها؛ لا تراه سلطانًا له الأمر والنهي. إنْ ترى فيه سوى الحرب على العربان الذين سد ذووهم طرقات دمشق على أبيها بإيعاز من يوسف بن مهنا. لكن ما عساه أن يفعل. أيثور على قرار الحرب على العربان الذين يبغون ملكه وملك آبائه، وملك كل المماليك في مصر؟! لاتّهموه بالخبل وفساد العقل ولعزلوه كما عزلوا أخاه حسن من قبل. بين نارين هو. يصرخ في نفسه وتقطعّه الصرخات: **أنا حاكم تلك الدولة، وكل المراسيم باسمي.**

يضع وجهه بين كفيه ويكمل: **بل أنا مسكين، لم يعد بيدي أمر. أنا طائر بلا أجنحة، أو أسد لم يمنح حتى الزئير. ليت الدموع تريح الملوك والسلاطين؛ لكنت أجريتها أنهارًا.**

انفطر وجه ملك. سألته في رفق: **مالك يا بني؟**

لم يرد. رفع وجهه واستدار عنها واستكمل جلد ذاته: **أيها المصطّفّين في الدروب والحواري تتفرجون، ألا تهبون لنصرة سلطانكم.**

تزعق فيه: **يا سلطان البلاد رد عليّ.**

كانت الدموع تقف على مشارف عينيه، تود لو أن حركة من الداخل ترميها على خدوده التي ستظل بريئةً مهما داستها قُبل الجواري الفاتنات. استدار نحوها وسألها: **أكيدٌ أني السلطان يا أمي؟**

- أو شكٌ في ضياء الشمس أو نور القمر يا صالح؟

بغضب بينٍ رد:

لم إذًا تتقولين كأنك المليكة الحاكمة، وأنا كالعدم؟

تخبط بكفها على صدرها، وينفطر وجهها مجددًا: **ينقطع لساني إن كنت قد قصدت هذا. إنما هو الذود عن حياض الدولة.**

يبتسم ساخرًا، ويهز رأسه: **أنتِ تقولين الدولة، والأمراء يتصارعون ويقولون الدولة، والعربان في الصعيد ينادون بعزلي ويرغبون في حكم دولتكم. أواه يا أمي. كل من أكلمه بين جدران القلعة يقول لي الدولة، وكل من يشكو ظلمًا يتكئ على سيفه ويمتطي حصانه ويقول الدولة. رغبات النفوس وصلّتُمُوها بالحكم، وقدّمتم المسكين صالح كبشًا للفداء!**

ثم يتركها ساهمة لا تدري بم ترد. وهو يقسم في قرارة نفسه أن يقيم الدولة حسب هواه: **بعد غزو الصعيد سأعزل كل الأمراء، وأصنع بطانةً جديدة، وأنفرد بالحكم وحدي.**



وادي الغزلان – برية إدفو

أين الغزلان الحين؟ فرت من قسورة، أم أن ليس للوادي من اسمه نصيب؟ طيلة شهر فات صار الوادي نقطة يقصدها العربان المتمردين. منذ أسابيع قليلة أعلن الأحدب وبعث كتبه للعربان أنّ من كان يود النصرة فليتجه إلى وادي الغزلان ببرية إدفو. رتب الأحدب جيدًا بمبادرته لتحديد مكان الحرب؛ التجريدة ستُنهك طوال السكة حتى تصل إلى أقاصي الصعيد، وكل أخبارهم ستكون مكشوفة له. كانت الوفود تقصد الوادي. إذا ما وصلوه سلموا على الأحدب وجددوا له البيعة ثم يعمرون الأرض بخيامهم.

للوادي منظر مهيب. في بدايته كثبان عالية من رمال بيضاء منثورة؛ كأنها فضة في وهج الشمس أو بحر تترقرق أمواجه تحت القمر. تلك الكثبان تحوطه من كل جانب كحلقة تحكم نطاقه. من بعد الكثبان تنبسط الأرض وتقسو قليلًا ثم تهبط وتنحدر إلى الأسفل فتزداد قساوتها وتصير أصلب؛ أقرب للأرض المدكوكة منها إلى الرمال السائبة، حتى تصبح كحفرة مترامية الأطراف. تخيلْ أن من شدة اتساعها كانت تسع كل وفود العربان! كالقصر كانت لكن بلا تشييد في الهواء.

في نهارهم؛ كان العربان ينهمكون في الإعداد والتجهيز للمعركة. جدران الحفرة العظيمة كانت صخرية، وكان هنالك عربان عراة إلا مما يستر عوراتهم؛ ينبشون شقوقًا. منذ أسبوعين هم مستمرون في ذلك.

واليوم تم لهم ما أرادوا؛ نحتوا في الصخور مراقد صغيرة. كان الواحد منها يكفي لرجلين متكورين. صارت الجدران مثقبة كبيوت النحل.

منذ أيام أشار أحد القادمين من صحراء الشرق ممن لهم علم بالفخاخ والأكمنة أن لديه فكرة. اصطحبوه إلى الأحدب، وبين يديه قال: **يحفر الرجال حُفَرًا على مبعدة من المعسكر، من الناحية التي ستأتي منها التجريدة. كل حفرة تحوي خمسة من الرجال؛ يندسون فيها إذا ما جاءت أخبار طلائعنا بوصول التجريدة. ثم يضع آخرون على كل حفرة تسقيفة خشب مبطنة من الأسفل بقماش من الخيش المبلل بالماء. وفوق التسقيفة تهال الرمال فتطأها حوافر الخيل آمنة.**

سأله الأحدب: **ولم نبلل الخيش؟**

رد الأعرابي: **الماء يجلب الرطوبة ويجدد الهواء للرجال المندسين في الحفر**.

استحسن الأحدب فكرته وقال: **اليوم؛ المكر مكرنا.**

لا يتوقف طول النهار سن السيوف أو حدادتها على نار موقدة، حركات الخيل، الجعاب يعاد فحصها وتملأ من جديد بالسهام. آخرون منهمكون في النقر بأزاميلهم وصنع التسقيفات التي أشار بها الأعرابي. غيرهم يجلبون الماء من بئر تبعد عن الوادي مسيرة نصف يوم. وكثيرون يجمعون الحطب لنار الأمسيات.

في كل ليلة تنصب الأسمار وتنثر الأحاجي. من ها هنا تسمع أخبار السابقين. ومن هناك تأتي أخبار التجريدة ونقاط وصولها. قصص الصعيد التي ولت، وقلقهم بشأن مستقبله القريب.

الهادي عدنان كان في خيمته قائم يصلي لله ركعتين، أطالهما قدر ما أوسعه الجهد. قرأ من سورة التوبة وبلل لحيته بالدموع. يونس اعتلى قمة كثيب وظل ينظر في الظلام المحيط بهم إلى المجهول. أما سليم فكان على باب الخيمة يجمع رقاعه ويعيد ترتيبها، ثم يضعها في صرة ويحكم ربطها.

وبينما سليم على هذه الحال، والقمر بدر في السماء، سمع صوتًا قطع أصوات المتسامرين:

يا سليم. أنا أتيت. سليم يا ابن أحمد، أنا أتيت يا سليم.

كان صوتًا صارخًا في لهفة وأحرف ممدودة فامتلأت أفئدة الجميع بالارتعاب والدهشة. يونس هب واقفًا وطل على المعسكر بنظرة مشدوهًا. والهادي كان قد أنهى صلاته وقطع دعاءه لما سمع الصوت، مرق من الخيمة يعاين الخبر.

الكل واجمون إلا سليم كان يردد مع الصوت المدوي: **غير معقول. غير معقول**. ندت عنه بسمة خاطفة أتبعها بوجوم وتنهد، ألقى صرة الرقاع على الأرض، ثم راح يجري صوبه ويبادله الهتاف: **تعال يا شرف الدين، تعال يا حبيب سليم. تعال، تعال.**

التقيا على طرف المعسكر. غاصا في بعضهما بالأحضان. التحما حتى صارا رجلًا واحدًا يدور في الهواء مصدرًا صوتين: **سليم، شرف الدين.**

ما كل هذا الشوق يا رجلان؟ لم يفت على آخر مرة كنتما معًا إلا ثلاثة أيام. أهو شوق الروح للروح، وجذب الدرب للصديق؟

قال قطنبة خاشعًا: **وها قد تحقق يا سليم. وأتيتُ من أصفون شوقًا ورغبة، وطمعًا في الثواب وتكفيرًا عن عمرٍ قضيتُه بين الذنوب أتقلب.**

هزه سليم من كتفيه وبسمة ندية على وجهه لما سأله:

ما هذا يا زينة الشعراء، وبسمة أصفون. أتبكي يا رجل؟

رد قطنبة وهو يجهش: **حتى محاججتي للشيعة بالشعر في قصر والي أرمنت ما أظنها إلا رياءً وتزلفًا. وفي أصفون ماذا كنت أفعل سوى إلقاء النكات والتغامز بالأغاني. كان بداخلي يحترق، واليوم أشعر بالراحة والسكينة إذ لحقت بكم.**

كان يبكي بين يدي صديقه كما لم يبك من قبل. كأنه بكاء الدهر كله قد ادخره لهذه اللحظة. رق سليم لحاله ورجاه أن يكف عن البكاء. لكنه أكمل:

لا حاجة للدموع إلا الحين. هذه ثروتي المحفوظة لهذا اليوم. أبكي اللهو والمجون اللذين غلباني، وفيهما قد غرقت. أبكي الضحكات الهازئة، والقصص الرخيصة. أبكي استخفافي بكل من شاكسني من قبل، وكل لحظة لم أقتنصها في تعلم الفروسية وفنون القتال، وكل ومضة من وقت مرت عليّ رفيقًا لنبيه الدين بن عبد المنعم وليس سليم بن أحمد.

بانت أصوات حركة المعسكر من حولهما بعدما كانت قد تلاشت. يونس كان قد نزل من على الربوة ووقف قبالتهما.

قطنبة راجيًا قال لسليم: **لكن ما بيدي حيلة. سأسقيكم في الحرب.**

رد سليم: **سقاء المحاربين جهاد.**



ذكر الأمير شيخو وهو يقف بين يدي السلطان قبل رحيل التجريدة أن تجريدةً أخرى بقيادته وقوامها أربعة آلاف مقاتل ستلحق في أثر الأولى تحسبًا لأي طارئ، وهذا مما لم ينتبه له السلطان الصبي الذي غرق آنذاك في التفكير.

وادي الغزلان للمرة الأخيرة

اكتمل عمل الرجال وجدهم؛ فالحُفَر التي قضَوا عليها أيامًا من الجهة البحرية من الوادي قد اكفهرت رمالها كأنها وجوه كلابٍ تكمن مترصدةً لفرائسها، التسقيفات الخشبية عملها النجارون وحملوها إلى حيث تكون قريبة وقت الحاجة، فاض الماء في كل خيمة، وانتفخت كل قربة ونيران الحِدَادة خبْت بعد أن جلتِ السيوف وألزمتها رغبة في دماء المماليك، وكل عربي عرف ما سيفعله. بالأمس أُرسلت الطلائع لاستبيان التجريدة، ولم تعد حتى الآن. الكل حبسوا أنفاسهم في الانتظار، وقد كان رجال أصفون بائنون في ذلك الجمع المغرق في الأماني؛ الهادي معظم وقته يتمتم بآيٍ من القرآن، وقطنبة كان قد ملأ قربة بالماء يطوف بها على تجمعات الرجال يسقيهم. تفرغ القربة فيعاود ملأها ثم يعاود جهاده وفي آخر النهار يلاصق سليم كأنهما جالسين صغارًا عند أحد عطفات أصفون. أما يونس فقد اعتلى كثيبًا من قبلي يناجي منه حبه الذي لا يفارقه متذرعًا بأنه يمد بصره ليستبق قدوم رجال الطلائع. الشيخ الفضل مع أبناء أعمامه من الدورية يتقدمون الصفوف لرغائب في نفوسهم لكن تصيبهم رعشة خفية في القلوب.

في ذلك اليوم كانت الشمس لاهبة كسوط تجلد الظهور والعمائم، كانت غاضبة تنذر بشرّ. الصدور قد ضاقت؛ لا هواء يبدو لها تتنسمه فينعشها والقلق بدأ يجد إليها طريقًا. الأمل يتسلق جدارًا بعيدًا وينظر بعين واحدة. القلوب بدأت تضطرب، ومع تأخر قدوم الطلائع بدأت

تنتفض وكأنها تصّاعد إلى السماء. كان كثيرون قد جمعوا أكفهم إلى أفواههم وبدأوا يتمتمون بالمعوذتين ثم يحصنون الأجساد؛ تسللت همسات متسائلة عن مصير الزوجات والأبناء لو لا قدر الله وهزمهم المماليك! تلك الفكرة صارت عصية على التخيّل بعد كل الذي بُذل. عمدوا إلى طردها عنهم بالاستعاذة من إبليس الذي كان يتخذ فيهم موقع التثبيط، لكن نفوسهم كانت تغويهم بالظفر وهي حبيسة جدران الافتراض. ماذا لو لا قدر الله وهزمنا المماليك؛ آوى السؤال إلى ضلوعهم فتقلقلت كقوافل تخشى الكساد والبوار.

لم يستطيعوا الفكاك من هذا الهاجس فبان الوجل وزاد، ولمح الأحدب بعيني الصقر عبرات تهفو منهم إلى النط من محاجر العيون.

كضمضم – يغشى الموت ولا يرجع – امتطى فرسه. طار به حتى بان طرف ردائه كبساط، ولما وصل إلى أبعد موضع عن الكل؛ عمد إلى صخرة عظيمة فاعتلاها. استوى عليها فكأنه قد هيمن عليهم إذ تجاذبوا نحوه. حل من بين الذعر وراح يكسر الصمت ويقتل شياطين النفوس:

ثلاثة أعوامٍ بالتمام والكمال أمرنا بيدنا، لا يُسلَطُ علينا والٍ، ولا يُحكّمُ فينا ظالم. صنا الأرض والعرض وبذلنا كل جهد ووقت. من أجل ذلك اليوم جئنا إلى هذه الأرض وكنا رجالًا نجهر بالحق ولا تأسرنا الفرجة كما يفعل أهل بحري. اليوم هو يوم الحقيقة الساطعة، والنور الذي لا يقاوم، والنار التي طال اضطرامها في الصدور وآن لها أن تخرج وتهب في وجوه الباغين فتأكلهم. سيأتي

إلينا من ظلمونا بأرجلهم فلا تنسوا ما فُعل بجدودكم. الوجع الذي كان يقض المضاجع كل ليلة في كل البيوت، والدموع التي كانت تحيل حياتهم سوادًا في سواد. ذلكم الذل الذي سقونا إياه بعد أن كنا أعزة أسيادًا في دولة العبيدين، وذلك القهر الذي فرضوه علينا من بعد حرية مطلقة في المال والجاه؛ كل ذلك –والله – ذاهب وممحوق بيدكم. اطلبوا السيادة فمن طلب ما دونها صار عبدًا لا محالة، وانزعوا عن نفوسكم نقصها فلا يشغلكم الموت أو حالُ من بعدكم. اطلبوا الحياة واسعوا إليها بكل ما تملكون. اطلبوها بدحر المماليك، من أجلكم ومن أجل ذراريكم من وراءكم.

ثم رمق الصفوف بنظرة متقدة؛ كأنه يزيدهم لهيبًا فوق لهيب الكلمات التي ألقاها فرفع الجميع سيوفهم في الهواء وتصايحوا بالتكبير. تزلزلت الأرض من تحت أقدامهم حتى كادت تنشق من هول هدير تكبيرهم، وسارعت إليهم غيوم حجبت نار الشمس عنهم. من صدورهم تنفث النار والحرارة، وعلى وجوههم طغى الغضب.

سارع قطنبة بصب المياه في الأباريق. بالبِشر سقاهم منها فانساب الماء من أطراف الشفاه نحو الرقاب؛ كسيل يشق طريقه في صخور فيذيها، كمثل يونس الذي تدحرج من فوق كثيبه فعفرته أغبرة الرمل. فرّ إلى حيث أبيه، تأمله بعد خطبة الأحدب فوجده قد زاد إلى خشوعه صلابة. الهادي لما رآه حنا بنظرة واحدة، ثم قال في حسم: **عد إلى مكانك، والزمه.**

قبّل يونس جبهته ويده، وعاد من حيث أتى.

بعد وقت ليس بالطويل بدأت رجفات خفيفة تغربل الرمال، وسواس ريح جفل من بحري فأرهفت له الآذان، بومة حلقت فجأة، ونعبت مرة واحدة. أحد الرجال التقط حجرًا وقذفه نحوها فأصاب الأرض. ما هي إلا برهة حتى ظهر نعيبها من المجهول لا ينقطع. الحين صارت رجفات الرمال أقوى، وطقطقة خيل قفزت إلى العالم فزاد تنصت الرجال.

أو عادت طلائعُنا بخبر التجريدة؟

تردد السؤال فمطّ الواقفون على الكثبان رقابهم كي يبصروا فلمحوهم مهرعين، وأحدهم يلوح براية حمراء. صاح أحد الفرسان ووجهه يمتلئ حمرة وغبارًا:

التجريدة وصلت.

التجريدة وصلت

المماليك أتوا وسنأخذ ثأرنا

التجريدة وصلت

التجريدة وصلت

شغى المعسكر بالتصايح والحركة. اقترب الوعد الحق، ولاحت من بطن الصحراء أجساد ستنهشها الجوارح. ركض الهادي نحو الأمام. تبعه سليم، أما قطنبة فقد ألزموه أن يصير إلى صخرة قريبة فالتزم دون جدال. على حافة الوادي من جهة بحري وصل الأحدب وعلي بن ناصر

ورفقتهما. كانوا يدبون الأرض كأنهم يغوصون في وحل. لا يوجلون، بل يفتحون الصدور ولا يأبهون. من خلفهم تبعتهم جموع العربان. تحرك عربان الفيوم، ومنفلوط، والمراغة، وأخميم، ورجال أصفون. كلهم مغاوير طالما أغرقوا زراعات للملتزمين وهدموا جسورًا تابعة للولاة. اليوم يثور غبارهم، والأرض بحركتهم تدور. يا ترى ما بال الأيام؟ من بين الزحام هتف مجهول يعرج على عصا: **يا رب دوّر الأيام لنا.** الحفرة العظيمة من الوادي تكاد تخلو من البشر؛ ككوة فتحت نحو السماء.

ماء في الأفق ترقرقت في أمواجه بيارق صفراء. سراب؟! لا ليس بسراب. إنها التجريدة المملوكية، وهذي دقات الطبلخاناه.. دوم. دوم... لا زحافات ولا منجنيق. لا قنداق ولا مكاحل. جبل الجند يتقدم، وكلما تقدم علا. سيوف، رماح، سهام، وأحصنة تعانق السماء في غرور. هذي الحرب المقدسة التي طالما اشتاقت لها نفوس الجند. من أجل الدولة والنظام.

كان طاز في مقدمة التجريدة، وسيفه في غمده لم يشهر، وعلى مقبضه منقوش أنه (نصرٌ من الله وفتح قريب). أما سيوف الجند فبلا نقوش؛ نقوشهم في صدورهم، يدبون الأرض جمعيهم: مماليك سلطانية، وأجناد الأمراء، وأجناد الحلقة، وأبناء العامة المتطوعون؛ مساقون إلى الدم وهم راضون وراغبون.

علام رميُ الأجساد في أتون العربان؟

أجابتهم نظرات عيونهم المتقدة؛ إنه السلطان، إنها الحركة الميمونة وإنهاء العصيان. لاحت من فتى مملوكي قوي البنية نظرة سخرية لما

أبصر حماسة الحشود ودوى صوته بداخله: **يا كذابين. ما بال الجامكيات المتأخرة، آه يا لئام.**

على عجل تقدم فريق من العربان حتى وصلوا إلى ما قبل الحفر المنبوشة فوقفوا. التجريدة تقترب أكثر، ودوي الطبلخاناه يطبق على الوادي. خوذ الجند تلمع تحت الشمس المتسللة من الغيوم فتخطف الأبصار، والأطبار المكفتة كأنها مردة تشكلت في هيئة زهور بساتين. وقت أن كانت الأرض تطوى تحت أقدام الجند شرع العربان – تحت غطاء الرجال المتقدمين – في الدلوف إلى الحفر. انتظم كل خمسة رجال في حفرة، وأُطبق على الحفر بالتسقيفات أتبعوها بالرمال.

أشير إلى الجند أن توقفوا فكان بينهم وبين العربان عشرون ذراعًا. أعقب الوقوف انقطاعُ الطبلخاناه عن الدوي ووضع كل مملوك يده على مقبض سيفه فخلخل الهواء سطع عظيم. أما الرماة فأقعوا على الأرض وألقوا الجعاب أمامهم، نفضوها فخرت منها السهام. كل ذلك يحدث وصفُّ العربان الذي غطى الحفر بظهور الرجال قد انشق ليفسح الطريق أمام زعيمهم. استمر سير الأحدب كأنه سحابة عظيمة تغشى السماء، ومن خلفه عاد العربان إلى تراصهم. بقي وحيدًا يسبقهم وعيناه تقدحان شررًا.

تلك الحدبة التي تظللها الغيوم؛ أما آن لها أن تنتصب؟

الأحدب ظل واقفًا في موضعه. رجلاه منفرجتان مقدار نصف ذراع بشر، ومن بينهما تخلل الغبار الذي أثاره وقوف التجريدة ونفذ إلى العربان من خلفه. غبار ستة آلاف مقاتل عكّر عيون ستة آلاف عربي!

لكن كيف يكون ذلك؛ ألم يزد عدد العربان قبل المعركة بأيام على عشرة آلاف؟! أين الباقون؟

ما تبقى من العربان كانوا قد تخلفوا وملؤوا المراقد المثقوبة في جدران الحفرة العظيمة. أربعة آلاف رجل يؤانسون بطون الرمال وينتظرون صيدهم في حينه.

طاز بدأ يجول بفرسه بعرض مقاتليه. بيديه درع وسيف، ووجهه عبأه الغرور شزرًا. أوقف فرسه ونادى كأنه في القلعة:

ارجع برجالك يا أحدب. ابعد عن الشر وارتحل. عودوا سالمين.

كالموج الهائج رد الأحدب وعيناه مغروزتان في الأمير المملوكي: **أتأمرنا؟!**

أجابه طاز وقد عاود التجوال بفرسه وأخذ يشير إلى جنده:

الدولة هي من تأمر. النظام هو من يفرض، وما عليكم سوى الطاعة.

الأحدب من مكانه لا يتحرك:

أين هي الدولة وقد جعلتموها قسمةً بينكم، وتركةً لأبنائكم؟! أين هي فروض النظام والفوضى بظلمكم تدك البر كله؟!

غرور طاز لا يقل بل يزداد فيرد:

مهما حصل؛ فشر الدولة خير، وباطلها أحق بالاتباع من باطل ما سواها. عنفها مشروع. حتى لو هي غبنت فما علينا سوى التسليم.

توقف طاز هنيهة فسرت نسمة أحدثت فحيحًا كأنه لأفعى تتسربل بلون الرمال، ثم أكمل:

وكله من أجل راحة العباد، ورفعة راية الدين.

قلص الأحدب من فرجة رجليه كأنه يكفي العربان من خلفه الرد:

راحة العباد في مكوس وجبايات ظالمة؟! راية الدين ترفعونها بسلطنة صبي على مصر؟! دلني على الدين فيما تفعلونه. قل ها هو هناك لنذهب إليه ونسأله: أأنت دين الله الحق، أم دين السلطان والأمراء.

بان على طاز الضجر:

قد كثرت أسئلتك.

كأن الأحدب يمعن في إغضابه:

ما أتينا إلى هنا إلا لنقف على أجوبة الأسئلة المعلقة.

هنا تدخل صرغتمش الذي بدا أن ضجره قد فاق ضجر طاز: **إنه لغويٌ يبغي كثرة الجدال.**

رفع طاز كفًا وجلمد وجهه وحملق بناظريه أن اصمت يا صرغتمش:

ألم يتناهَ إلى سمعك يا أحدب أخبار سلاطيننا وأمرائنا في سالف الزمان؟!

من صد التتر، وقضى على الفرنجة وقطع دابرهم من بلاد الشرق إلا نحن؟!

من زان دولة الإسلام، ووسع رقعتها، وزرع ذاك البيرق الخفاق في ربوع الشرق؟!

مصر الآن مركز الدنيا، وجوهرة مكنونة. لمن الفضل، لمن الامتنان؟ هل للدين والدولة من فرسان سوانا في هذا الزمان؟!

كأن الأحدب توقع الرد:

الإسلام لا يرضى بالظلم، ولا يقنع بالجور من حكامه لو أنهم زادوا رقعة بلاده. تقول ربوع الشرق، وما تدري أن حياض الإسلام هي ظلمٌ يُدفَع أو عدل يقام. من فيكم محا بغيًا أو رفع مهضومًا. تريدون منا أن نصمت على كل عذاب تسومون العباد إياه طالما أنكم تجوبون في البلاد فاتحين وتذودون عن البر مدافعين. هيهات إلا أن تحصنوها بالعدل، وإن فعلتم فما نحن لكم بمسلّمّين. نحن أصحاب البلاد.

زمجر طاز، ونفخ من فيه فتناثر بعيدًا رذاذ أصاب الرمال من تحته، ورؤي الغضب يملكه حتى رد:

أنا طاز: خالع السلاطين وموليّ الولاة ومدبر أمور المملكة كلها. وما أنت إلا عجوزٌ قد خرف. تعيب الدولة وتتمرد على نظامها وتنكر أي أفضلية لها. لكنك لا تعرف أن الدولة بأمرائها، وأن الأمراء هم الدولة. تلك الدولة التي تنكر شمسها ونورها ونارها هي من عرفت عن خُلّصٍ من رجالك ما لا يتصور: في قلب جيشك ما وصل إلينا من قلب بلادكم. فيكم العيون ومنكم.

ربكة أصابت صفوف العربان؛ فالعيون التي اشتراها المماليك هم دومًا من المصريين. ماذا يقصد طاز بقوله؛ فيكم العيون ومنكم. من

ذاك العربي الذي خان؟ من أي البلدان؟ الملعون؛ بمَ اشتروه؟ زاغت الأبصار تتوجس خيفة ورعشة. حتى أكمل الأمير الذي بدا مالكًا لزمام أمره: **في صفوفك تاجر ذائع الصيت في بلدته التي تسمونها أصفون. اسمه الهادي عدنان، وهو طويل قسيم ذو مهابة. في رأسه صلعة، ولحيته كثة بيضاء. بشروه أن أحد جندنا سيبقر بطنه العظيمة. وبعد المعركة – يا أحدب، لو نجوتَ – سأخبرك عن ثرواته كلها.**

قرقرت لهاة طاز بالضحك بينما انتابت الدهشة والوجوم كل رجال أصفون. قطع الأمير ضحكته، نظر من تحت عينيه وقال بخبث:

لن تعيش يا هادي لتسأل عزيز الجاوي لم فعل ذلك بك وبابنك وبزوج بنتك.

عض سليم على فكيه وهمس: **عزيز الكلب.** بجانبه كان يونس فأكمل وهو يتميز غيظًا: **الخائن الجبان.** أما الهادي فاكتفى بالتمتمة محوقلًا وبادل الأحدب نظرات حملت خبرات السنين كلها. ثم صاح: **معك إلى النهاية يا محمد بن واصل.** ثم أشهر سيفه في الهواء وولى وجهه شطر العربان وكبّر فأعلنوا للتجريدة أن الخيانة ما تفُتّ فيهم أبدًا.

عندها أيقن طاز أنهم سيواجهون رجالًا يختزنون كل الصبر لذلك اليوم. بنظرات ماحقة وجه بصره نحو صرغتمش وأتابك العسكر. الأخير رفع يدًا وأنزلها كأنه يضرب الهواء فدردبت الطبول. دوم دوم دوم دوم. قرعات الطبول أحدثت في الهواء طنينًا، وسُمعت أصوات تتصايح تشجيعًا للجند: **يا رجال السلطان. اليوم يومكم يا فرسان. يا عز الدولة ونصرها.**

غلت الدماء في عروقهم والتصايح يتلاحق: **كونوا شجعانًا. فرسانًا لا يشق لهم غبار.** الطبول لا تستكين بل تعلو وتيرتها؛ تحثهم على الغضب:

ألقوا الرعب في قلوبهم.

أفنوهم، اسحقوهم.

ومن يبق منهم فليحلف بالله ألا يقاتل مملوكًا مرة أخرى.

وهم على هذا النحو من اشتعال الجذوات في صدورهم إذ توقفت دمدمة الطبول فبانت زفرات الجند. من بين عيونهم الجاحظة انطلق شرر نار جديدة، وفي عقولهم تردد صدى رنين الجامكيات التي وهبها السلطان لهم إن هم عادوا ظافرين.

طار من بينهم قطاران من الفرسان. لهم أحصنة مدرعة حتى السيقان. جمحت بهم صوب العربان الذين ما بانت منهم حركة. كالجبال في مهب الإعصار. دنا الفرسان وسرعان ما افترقوا ودار كل منهم نصف دورة. ثار الغبار واختلط بعرق الجباه ثم ارتدوا بعدها إلى صفوفهم. ما احتل الفزع المظنون شبرًا من قلوب العربان؛ إن هو إلا كالغبار. معه طار وسار أينما سار. فقط كان الرجال المختبئون في الحفر يشعرون بوقع حوافر الخيل المسرعة؛ كأن السماء تقع على الأرض وتهلكهم. فيضمون سهامهم ويتمتمون.

عاود الجند حركاتهم المدروسة؛ قطاران ينفلتان مرة أخرى، ودوامة من الفرسان كأنها عين هائجة في بحر راكد. قطاران آخران، وآخران، والغبار لا يهمد. لا ذعر يلقى في القلوب، إلا الذعر الساكن تحت الأرض خوفًا أن تنشق التسقيفات وينفضح الأمر.

قطنبة ترك مأمنه راغبًا في الشهود. اعترته رعشة ورجفة؛ فالموت مخيف في وهلته الأولى. لا، لم يكن الموت ما يخيف، إنما حومان رسله على رؤوس الأشهاد.

وعلى حين غرة دوى صوت الأتابك مجلجلًا: **هجوووووم.**

انطلق الجند كأنما فكوا من قياد. سنابك الخيل اقتلعت الأرض، والخيل تعدو ولا تتعب كأنها ألبست روحًا من مراجل لا تكف عن الغليان. والسيوف برقت لما وقعت عليها الشمس التي انجلت حجبها فجأة.

هاكموا حرب تقتلع التمرد من صعيد البلاد.

تعيد للنظام سيرته الأولى. ويصير لمصر سلطان واحد.

هذا صوت طاز وهو يخطو في أرض الوغى. عروقه نفرت حد الانفجار. والخيل تدنو من العربان الذين ما برحوا أماكنهم. كأن على رؤوسهم الطير. وقطنبة قدماه لا تحملانه ولسانه ثقيل. أراد تحريكه فما جاوزت الكلمات زلعومه.

العربان المخابيل في أماكنهم لا يبرحونها. سيُسحقون لا جرم.

قلب قطنبة ارتج فوضع كفه عليه كأنه يخشى السقوط. استجلب الكلمات فأبت الطلوع. ينادي في روحه لكن ما يفيد نداء الروح في هذا الأوان. عافر وكافح حتى أتى أمر الله فصاح: **يا سليم. يا سليم. تحركوا يا قوم. تحركوا يا رجال.**

كأنها كانت كلمة الاتفاق. أفلت العربان الألجمة لخيولهم فهاجت بهم نحو منحدر الوادي؛ إلى حيث كانوا يعسكرون.

جندي من المماليك هاله ما يرى فقهقه: **فئران مبلولة**. صرغتمش في حلته الحصينة زعق: **وراهم، وراهم.**

في تلك اللحظات انشقت الأرض من خلف التجريدة، وأسرع المختبئون يهرعون من حفرهم؛ كانوا كفوج من العقارب أصابته لوثة فوطئوا الأرض خفافًا سراعًا. كانت الحفرة العظيمة مقصدهم. يا الله ماذا ينوي هؤلاء بسهامهم؟! غير معقول، العربان لهم مثل هذا التدبير. عجيبة من عجائب الزمن والله.

كان قطنبة قد آوى إلى صخرته يرقب المنظر. لهث كثيرًا وبيده قربته التي فرغت. تأتيه زعابيب الرمال الهائجة من تحت الأقدام فيسعل صدره كأنما يتقطع.

استوى العربان في المواجهة مع التجريدة، لكن هذه المرة احتوتهم الحفرة العظيمة. يا لعجب شأنها؛ كأنها تنقبض وتنبسط فتفيض فيها الجموع. حرارة اتقدت من خلف صفوف المماليك. التفت أحد الجنود خلفه فبرقت عيناه وجمد فيه الدم. صرخته التي أطلقها لما أصابه قوس في قلبه كانت الأخيرة له على وجه الدنيا. وكانت بداية هلاك تدنو ركابه من رؤوس رفاقه. انطلق النحل المسلح من مراقده التي في الجدران فأربك الرجال كل تدبير ووقع المماليك في الكمين. وبدأ سيل السهام من أعلى؛ ممن هربوا من الحفر ذوات التسقيفات.

صاح الأحدب كأنه يثأر لصمته: **اليوم للعربان، وحيلة العربان.**

الهادي على كبر سنه اعترته فرحة خفية عن العيون. ها قد بان الحصاد... الفضل ملكته رغبة مشبوبة في أن يغرس أسنانه في كل

أجساد التجريدة، يقطعهم إربًا وإربًا، ويقتلع أفئدتهم ويرميها في الصحراء.. آهٍ لو كان القصير بكر معهم، آهٍ لو جاء يرشدهم ويدلهم لضربه بسيفه وفلقه فلقتين وانتقم لكل ثارات الدورية الثخينة عبر الأزمنة...

العربان واقفون ينتظرون، والتجريدة بينهم قد أصابها ذعر... صاح الأحدب مرة أخرى ورفع يديه عاليًا: **نحن أصحاب البلاد**... من بين الهلع في قلوبهم تيقن الجند أن الجامكيات لا يلزمها النصر فحسب... وقر في قلوبهم إنه يا روح ما بعدك روح... فلتغور الجامكيات، ومن يدري، من يعرف؛ لو نفدنا بجلودنا هذه المرة لخضنا معارك جديدة يكون فيها النصر مؤكدًا والجامكيات فيها مقبوضة؟ تفسخ نظامهم. تخبطوا واندثرت الطبول برجالها وبحثوا عن مهرب آمن.

نشط القتل.. سالت دماء من شرايين مقطوعة كأنها نوافير تفور... خارت قوائم الأحصنة في الرمال... انكسرت سيوف، وطعن الرماح اقتلع الصرخات.

نادى طاز بعلو صوته: **أين أنت يا شيخو؟** دنا شبح الانكسار منهم. سيقال لأول مرة: غُلب المماليك بالحيلة. يا للذل ويا للعار... رجال الحفر المسقوفة أقلعوا عن رمي السهام، وأمسك كل منهم سيفًا ونزل إلى الأرض المنحدرة يثخن الجراح. عندئذٍ؛ بدأ يونس ورفاقه على الكثبان القبلية في إطلاق السهام بغزارة. استبشر الفتى بالنصر الذي لاح ودق قلبه بحب طاهرة... همس الفضل لنفسه وهو يكثر القتل فيمن يلقاه: **أيامك ولت يا بكر، انتهى سلطانكم يا مزدية.**

طاز يصيح: **أين أنت يا شيخو.. أيها العجوز الهرم.. الدولة في خطر.. نحن نموت.**

نظر نحو الشمال فوجده لا ينم عن إجابة لسؤاله فقرع الآذان؛ **ضيعنا شيخو. ضيعنا الجبان. دبرها ونفد الخبيث؛ من اكتظت الشطآن والسكك له بالأفراح.**

أيقن العربان بالنصر فنزل الرماة من فوق كثبانهم.. كل صاحب غرض بان على وجهه... الأميران المملوكيان يقاتلان ومعهما ما لا يزيد عن الألف جندي.. يصارعون الزمن لا أعداءهم فحسب. ويطلبون الأمل ولو كان قشةً في محيط ممتد.

ضيعتهم يا شيخو.. أهانت عليك أرواح التجريدة، أم هان عليك السلطان؟ اظهر وبان يا شيخو.. صاح كثير من الجند كأنهم يطلبون الرحمة من بين الجنون: **اظهر وبان يا شيخو.**

هنالك بانت القشة عملاقة، وبان العجوز الهرم يقود تجريدة الحياة. ردت إلى الجند الأرواح، وهفهفت وجوههم. ثارت بينهم أصوات تنادي على من فرّ: **عودوا. المدد أتى.**

كادت تبين من عين طاز دمعة وقت أن انهمر جند شيخو نحو منحدر الوادي.

وصارت مطحنة...



يا سعـــد من زار المقـــــــام ورآه

صلى عليــك الله يا علم الهــــدى

يا بدر نايــر في الوجـود بسنـــــــاه

أصليّ وأحب اللي يصلي على الـنبي

ألفين صلاه ... على بحــر علــم الله

من بعـد تمجيدي في مدح محمــدِ

اصغى لكلامي والتقـط معنــــــاه

من سيرة بني هلال

بانت الشمس على الوادي الذي لم يبق فيه سوى دخان يتطاير هلعًا ويذهب مع العساكر الراحلين، بعض المقاتلين، معظمهم من الدورية - ومن بينهم الفضل - الذين ضلتهم أقواس الجند المجنحة. صفير يخنق الجو سببّه هواء محموم قد اجتاح ما فوق الكثبان الخاوية. الخيام حرقت، وهي الحين رماد تذروه الرياح.

هنا قطنبة وحيدًا، حزينًا، بائسًا، طريدًا في هذه الفلاة. فضَّت دربكة الخيل ورحلت فلول العربان فخرج من مخبئه. أول ما نظر تملكه الهول وكاد يجن. تصلب في موضعه كأنه يسلم الروح ثم هرول من ركن إلى زاوية علّه يجد نفرًا من الأحياء يسألهم ويجيبونه. ألجمه صمت الوادي الثقيل.

كان في سعيه الحثيث يفعص الجثث فتبكبك منها دماء قد ازرقّت. ومع كل فورة دم كان قلبه يتقطع كقطعة لحم في قبضة ساطور. لكن بلا آهات إذ فُرض عليه الكتمان. لو أطلق ما بداخله من آهات لحرق كل الوادي ومات، كانت تكفيه صرخات الجرحى إذا ما داس بغير قصد على أحدهم. صرخ كالطفل الذي تاه من أبيه في زحام السوق: يا سليم، فلم يجبه سوى صدى صوته. قلّب في الجثث وهو يبكي ويشهق، عمامته طارت وغرق في بحر الهواء المحموم، شقّ الصفير بكفيه إذ خبطهما على رأسه، ومِثل مصلوبٍ في جريرة شَخَص ببصره نحو السماء وهتف: **الله لا يخذل المظلومين.**

في قرارة نفسه تمنى أن لو يجد سليم حتى لو ميتًا. قال لنفسه: المهم أن أعثر عليه ولا يذهب عن هذه الدنيا بلا أثر كالرماد الذي تفتته الرياح وتلتقمه الأرض في ذراتها. لقد رأى بعينيه الشيخ الفضل ومعه رجلين من الدورية قد فروا بحياتهم؛ ألا يكون سليم قد فعل مثلهم؟ لا لا. لم؟ وما الذي يمنع؟ تذكر أن سليم ليس بجبان فأيقن أنه ليس من الفارين. طال بحثه ونهته رجلاه أن التعب حل بهما فتوقف عن الجوب في أرجاء الوادي. أهمته عقدة فقال: **ألسنا المظلومون المقهورون؛ لم هُزمنا إذًا؟!** ثم أقعى على ركبتيه وأجهش بالبكاء.

بعد حين بدلت السماء ثوبها واكتست بالغيوم تارةً أخرى فهطل ظلٌ على الأرض. رفع قطنبة وجهه فتعلق بشعر ذقنه بعض حبات رمل. الهواء، وفي ذيله الدخان، قد ولى. ولا شيء يوقف مراجل قلب قطنبة عن الغليان، حتى ارتطمت رقعة جلد بساعده. رفع الرقعة وقطاران من عينيه سارا حتى شفتيه. أول ما حط بصره في صفحتها وجد مكتوبًا:

(إلى الأمير المعظم؛ كاتب السر[1].

أطال الله ولايته، ووسع له حرمته...

أطلعكم على أن من العربان رجل لا يقل في محيطه خطرًا عن الأحدب. جمع من حوله الرجال والفتيان وسار بهم إلى إدفو وأشعل في البلدة نارًا في كل سمر ومجلس عن الحرب على المماليك.

---

[1] - الأمير المختص بمراسلات العيون والجواسيس

سيظفركم الله على البغاة المتمردين، لكن لو بقي ذلك الرجل حيًا لأومضت جذوة التمرد عليكم تارة أخرى، ولأحالها هو بماله نارًا عظيمة لا تهدأ حتى تستقر على أبواب القلعة. ومن يعرف، فقد ينجح في تأليب العامة في القاهرة عليكم، ويتحد ضدكم كل من في بحري وقبلي. هذا ما نفذ إليه عقلي بالمشاهدة والتتبع والترصد. اسمه الهادي عدنان؛ من بلدة أصفون، ومعه في الحرب قد اصطحب ابنه؛ نجله الذكر الوحيد، وزوج بنته. وقد أرفقت مع الرسالة بيانًا مرتبًا بثروته في أصفون وتجاراته الغادية في كذا بلد وقطر. هو طويل، أصلع الرأس قسيم الوجه ذو مهابة، ولحيته بيضاء كثة، وله بطن عظيمة. هذا لكم علامة له وأثر. والسلام ختام.

صاحب الخبر[1]: عزيز بن بهي الجاوي)

بعد أن قرأ قطنبة الخيانة المكتوبة تذكر يوم عرس عزيز؛ تمرقع وشدا بالأغاني وفرح، وفرّح الناس به. فاحتقر نفسه وصفع وجهه صفعة بعد صفعة. **سأنتقم منك يا عزيز الجبان، وأقتلك بيدي هاتين علّ سليم يرضى.** لما جاءت السيرة انتبه وصاح في الرمال المتبلدة: يا سليم. هام على وجهه مرة أخرى، كان يجر قدميه كأنما قد أُلقي في وادٍ بجهنم يُعذَب. صعد إلى الكثبان فغمره شعور أنه قد استوى

---

[1] - رتبة من مراتب الجواسيس.

على جبل الأعراف؛ لا نبيه قد أكمل السير معه، ولا سليم قد صحبه حتى النهاية. جال ببصره ناحية بحري؛ على مد الشوف، على طول وعرض الهموم الملقاة أرضًا فخُيّل إليه أن ثلاث بقع تتكوم على الرمال. فرك عينيه فظلت البقع كما هي؛ ضخمة لا يبين منها ركن أو معلم. عزم السير إليها، وكلما اقترب دق قلبه. كان يدنو فظهر من بين دلجة الغيوم فرسان كأنما يخوران.

البقع تكبر وتكبر. وقلبه يكاد ينخلع. بانت الأيدي، فالأرجل ثم الهياكل.

أو يكونوا هم؟! همّ الخطى وأسرع السير. قلبه يسبقه، وعيناه بدأتا في الدموع. أو يكونوا هم؟!

من وسط الرمال والعيون القريحة أبصر الحقيقة وبانت له الأجساد. ولما وصل بانت له معالم حياته القتيلة، وحماسة شيخ قد ذُبحت، وقلب شاب غض قد كُسر عنقه.



أصفون لآخر مرة

وصل قطنبة مشارف أصفون فبان له أن المماليك قد دنسوها؛ نُصبت الرنوك على مصاطب حشوها بجماجم القتلى، حطموا أبواب الدور وأفرغوا بطونها خارجها. نهبوا ما ينفعهم، وما دون ذلك اكتظت به الدروب مع الناس الذين لا هم عراة ولا هم مستورين. كل هذه الأمارات دلته على أن المماليك مروا من هنا.

مشاعل الدروب موقدة، غير أن أضواءها قد شُبعت بحزن دفين. الوجوه مشوبة بانكسار يظللها؛ انكسار الأحدب وجيش العربان، وانكسار ذواتهم وذهاب أمانيهم. نواح من النسوة يطغى على الدروب من الدور، صخب كطنين النحل من الصبية الذين أفزعتهم الدوشة، والرجال فالصمت يجللهم.

السؤال الذي يخنقهم ولا ينطقونه: لماذا هُزمنا؟

كانت إشراق تسعى بينهم حافية، ومعها يسعى شعر رأسها الذي انحلت عقدة حجابه من الهلع. تهزرجلًا من كتفه، وآخر تدكه في صدره. وتطوف على نفرٍ فما تجد منهم غير طأطأة الرؤوس إلى الأرض. كانت تصرخ: **أين الهادي؟ البعل والرجل ورأس الدار. ابني، وزوج بنتي اسم الله عليهم. أين هم؟!**

مباركة كانت تمسك بسبع حبات؛ ذرة، عدس، عدس بجبة، أرز،

فول، قمح، وحلبة. نثرتهم في الهواء وناحت: **حبات سبوع ولدك يا سليم.**

كانت طاهرة تلوذ بالصمت بينما تتبع الأم وبنتها. تربت بيدٍ كتف هذه، وتشفق من نواح تلك وتبين منها الدموع. حتى ضجت بالألم المكنون وصاحت في الفضل ومن عاد معه فارين خائبين: **خبرونا ولا تكتموا عن الدمع الطليق الإجابة. خبرونا أين هم الرجال يا فلول الجيش المنكسر.**

انزوى الفضل إلى ركن وانكمش فيه. لم يعقب بل كتم خيبته.

لو كانوا يعرفون أي بطن صحراء بلعت جثث الثلاثة لراحوا ونبشوا كل ذراتها. لو كانوا يعلمون أي سرب غربان نهش لحم الرجال لطاردوه غرابًا غرابًا، ولجمعوا الجثث قطعةً، قطعة، وألصقوها ولو بقصر المِلّ، وكفنوها بالحب ووضعوها في نعوش العِشرة وأرخوا عليها ترابًا من الحنين.

لا أحد يعرف سوى قطنبة الذي شق حجب عقولهم وأبصارهم فجأة. كان يجر بيديه فرسين أغبرين؛ على أحدهما وُضع الهادي، وعلى الآخر ترافق سليم ويونس. لبرهة توقف كل شيء؛ نواح النسوة، وجلبة الصبية، ودوران الأفكار في العقول. انتصب الفضل من ركنه غير آبهٍ بمصيبته، واشرأبت أعناق الكل نحو قطنبة.

ثم انهمر سيل النواح والولولة. وتاه قطنبة وسط طوفان من السيقان والأيادي تتدافع على الثلاثة المقتولين.

أفلت المسكين يديه عن الفرسين. رفعهما عاليًا، وصاح من وسط الإعصار:

خيانة عزيز الجاوي ليس مثلها خيانة. راسل المماليك وباع الكل وانتقم لنفسه.

ثم أخرج من بين ثوبه رقعتي جلد وأخذ يلوح بهما: **رسالة بنعوت الهادي، وسليم ويونس، والأخرى كتب فيها كل ما يملكون.**

تصايحت حناجر من بين الجمع:

عزيز كلب نجس.

الحقد يعمل في النفوس عمله.

حقده على سليم أعماه.

قطع قطنبة كل صيحة إذ واتته فكرة فقذف بها دون تأنٍ: **هيا بنا إلى عزيز نحرق عليه داره كما أحرق قلوبنا.**

هب الفضل ونفسه التي لم تصفُ للمزدية يومًا توجهه: **نعم. ثمن الخيانة النار.**

ناحت إشراق: **ثمن حرقة قلبي وقلب بنتي النار.**

على عجل انتزعت الأيادي الغاضبة المشاعل من على الجدران. لملمت النسوة صبيانهن من فوق الأرض وحملنهم على كتوفهن.

أتاك اليوم يا عزيز... البلد فيها رجال... سنحرقه وما يملك.

سارت أمواج الغضب نحو غايتها، طوت الدروب بأقدامها. إشراق تمسك بلجام الفرس الذي عليه الهادي وعيناها تقدحان شررًا. مباركة تقبض على الفرس الآخر، وطاهرة صامتة في حزنها وفي غضبها كما هي في حبها وإخلاصها. العيون كستها الحمرة، وظللت الوجوه أدخنة من المشاعل التي قرعت طقطقتها الآذان. كأنها تتلوى من الغيظ.

تَزُمُّ أفواه وتلعن أفواه ويصرخ البعض:

كله مقدور عليه ويهون إلا الخيانة.

وصل الموج عند الدار فتوقف هديره. ثبتت الأجساد لكن القلوب تحترق. الصدور تعلو وتهبط حاملة كل وجع. الناس في أصفون مقهورة قهر السنين، بان منهم أن يجهروا بالسؤال عن الخائن؛ أين هو؟ أخرجوا الملعون إلينا. جئنا نأخذ ثأرنا.

لكن ما عساهم لم يفعلوا. ما عساهم لم يصرخوا. ما عساهم لم يثأروا ؟!

كانت مريم تجلس على عتبة الدار، بجانبها عزيز ممدد وفي بطنه تنغرس سكين. الدم ينزف ولا روح تبعث الحياة في الجسد. عبد البر واقف كجبل منيف، نظر إلى الجموع وامتلأت عيناه بالمشاعل ثم قال:

سيدتي مريم عرفت الأمر وشق عليها أن فلذة كبدها يخون قومه. حتى واجهتْه ووقفت منه على كل تفاصيل خيانته لقومه. كأنه ما قدر أن يكذب على أمه، بكى وردد: مباركة وأبوها السبب. قتلوني قبل أن أقتلهم. أنا من أجهزت على الخيانة الكامنة في روح عزيز بأمر سيدتي.

أصاب الذهول المحتشدين. دارت الدنيا بإشراق فوقعت على الأرض، وصرخت مباركة صخرة الحزن والقهر. وبان على الفضل أن المزدية يضنون عليه بثأره. انفلت بكاء مريم وهي تقول: **كفيتك الناس يا ولدي. طهرتك بيدي.**



المغارة أخيرًا

لم يكن ثمة بد إلا من الرحيل؛ فأصفون التي ألفها قطنبة وألفته لم تعد كذلك. أرضها مادت به وضاقت وناسها بعد كل الدماء التي سالت والأحبة الذين فارقوا والخيانة التي زرعها إبليس في أرضهم؛ عادوا إلى اعتيادهم؛ في النهار فلاحة وغرس، وفي الليل حلقات سمر وتنكيت.

الحزن بقي مقيمًا في قلوب أصحابه؛ لا يجاوزهم ولا يملّونه. فإشراق اتشحت بالسواد على الدوام، ومباركة جفت مآقيها وقال الكل: لا يعيش لها ولدُ سليم. أما طاهرة فإنها ظلت حبيسة غرفتها يُحمل إليها الزاد فتعيده كما هو إلا بعض لقيمات.

في البدء لاحقت تصاوير الذكرى قطنبة. من كل ركن وزاوية قعد فيها مع سليم. هاج قلبه واعتمل فيه شوقٌ لا بر لأمواجه؛ فهام في الصحراء. حمل همه لباسًا يقيه البرد، وسار نحو الشمس الآفلة يطلب شروق روحه المتعبة. لم الغرب دون باقي الوجهات؟! هتف كسيرًا من أعماقه:

وهل لشتاتٍ مثلي قدرة على الخيرة بين الأماكن؟!

اجتاز مدقات الصحراء دونما وجل ورافق القمر في ليالٍ عدة. حاور النجوم وحاورته فتذكر حلقة الحكي عند الجامع الكبير أيام الهزل. ما قصّ على الملتفين حوله يومًا حكايته غير أنه خبّرها للنجوم. حكى لها

حكاية الصغر إذ كان يجلسه أبوه إليه ويحفظه القرآن. أمه كانت ترقده في حجرها وتنثر له حكايات قوص القديمة، ومهازل الحاكم بأمر الله وسكوت أهل القاهرة على غيه. قال للنجوم في أسى: **طال سكوت أهل القاهرة على حكامهم.** ما خاف الجن وهو يمر بواديهم، ولا فزع وقت أن سمع من ناحيتهم قرآنًا يتلى بصوت عذب. تذكر أباه وهو يوصيه في احتضاره: **فلتسع كتاب الله فإنه حمال أوجه، وإني قد أقمتك على حروفه ولم يأذن الله لعمري أن يمتد إلى أبعد من ذلك؛ فأقم نفسك عند حدوده.** أرهف سمعه ناحية وادي الجن فسمع قرع كؤوس في سكون الليل، وصراخًا بتنهيد خُيل إليه أنه لجنيةٍ تعاني. قال لنفسه وأساه يترسخ: **أكثر من ثلاثين عامًا وأنا أبحث عن المعاني، ولم أصل إلى الحدود أو أي بر. أتردى بين الحفر وترهبني كل الدروب.**

رحلة مضنية غايتها خلع ربقة أصفون، والتحلل من لعنة المجون الضائع، والهداية المغدورة.

سار حتى تورمت قدماه. إلى أن رماه قدر الله على عتبة المغارة. أول ما دلف إليها ارتعش. خاف لكنه أكمل السير. تقدم فملكه شعور عجيب بالفضول للمعرفة. لمح الشيخ فشهق ثم سأل: **أبشرًا هنا؟!**

أجال الشيخ بصره في سقف المغارة الشاحب في ذبالة الشمعة المتقدة وأنشد:

فلو قلت ما أنت لقلت معذبٌ

بنار مواجيد يضرمها العتب

بليت بمن لا أستطيع عتابه

ويعتبني حتى يقال لي الذنب[1]

كأن الشعر قد بث فيه ألفة فذهبت عنه الوحشة المتبقية. هم بمد الخطى نحو الشيخ، لكنه توقف فقلبه يرغب في مزيد بيان. لكن ما عليه أن يعجل فلكل بيان أوان.

كان الشيخ يضع ساقًا ويقيم الأخرى على الأرض، ويسند ظهره إلى جدار المغارة الذي قسا عليه حتى ألفه. وجهه كله نور؛ من العزلة والبعد عن الناس قد اكتسبه. صدر عريض وأنف مديد، ولحيته كالثلج تفترش حتى ترقوته. يا لمهابته في هذا العرين كأنه السلطان غير أنه لا قيان ولا غلمان ولا أمراء يحنون الجباه. عيناه مثبتتان في المجهول؛ كأنه ينفذ

بهما إلى ما خارج هذه المغارة فيقع في قلبه علم لدني وكرامات بلا عدد.

قال دون أن ينظر لقطنبة: **احك يا قطنبة حكايتك.**

قطنبة الذي كان في مدخل المغارة بعد، ملكه العجب ووقعت عليه الكلمة كالرعد. عرف أنه دخل مقامًا لولي من أقطاب الزمان فدمعت عيناه. نطق كالصغير يرمي من على كاهله حملًا: **كما عرفت اسمي فلا بد أنك عرفت حكايتي يا مولانا.**

---

١ - البيتان من شعر سمنون المحب؛ حفظهما الشيخ في صغره من حلقات الذكر.

صوت الشيخ أجش: **وفوق كل ذي علم عليم. احك يا بُني. تعال قريبًا مني واحكِ.**

يد الشيخ الممدودة كأنها حبل ثُبت طرفه بجسد قطنبة؛ فحملته قدماه إلى حيث يقعد الشيخ. نفسه ما زالت كسيرة غير أنه لما دنا من الأرض وتربع ونظر في النور الذي في الوجه سرى فيه تيار سكينة ملأ كل جوانحه. سأل روحه: **أيكون هنا البَرّ؟! أأجد هنا جواب السؤال وبيان المآل؟!** أيقن أنه لن يخسر إذا ما جرّب فألقى كل أحماله بين يدي الشيخ.

كأنه يعتصر الألم فقبض قبضةً من رمال المغارة، عصرها وهو يحكي الحكاية فخرجت روحها من بين أصابعه. ضرب الأرض كذا مرة ووقف وسار إلى الجدار الآخر وانتحب في ظلمة المدخل ومن ورائه أنوار الشيخ تتلألأ. سأل والغضب يملكه: **لم يا رب كل هذا الظلم، والضياع، والخيانة؟ أهذه دنياك التي ارتضيتها لنا؟! ما أمر العيش فيها يا رب، ما أمر العيش فيها يا رب.**

جاءه صوت الشيخ لا كدر فيه ولا تغير: **اسأل نفسك. سبحان الجبار؛ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.**

أعطى ظهره للدنيا المظلمة وقصد الأنوار التي لا تخفت. سار بقدميه وجلس بين يدي الشيخ مرة أخرى. كان يهز رأسه كعليل تكويه الحمى. نظر في الوجه المهيب طالبًا الرحمة والبيان لكن لسانه خانه. وضع رأسه في حجره وأجهش، ثم انتحب وطال نحيبه إلى أن أعْوَل، ولم يرحم بياض عينه الذي تعكر من الدموع. جف منه كل دمع فنزل فوق رأسه صوت الشيخ ببارقة:

و ما من يد إلا ويد الله فوقها

و ما من ظالمٍ إلا سيبلى بأظلم.

لم يشغله بيت زهير طويلًا إذ أُلقي في روعه إلهام المعنى فقال مدافعًا وقد رفع وجهه:

دلني على الحق، ولا تلقي بي في غياهب وألغاز السكك.

زادت لهفته ودفاعه: **ألم يكن العربان يقاومون الظلم.**

سأل الشيخ وهو على قطنبة قد علا واستوى: **بمَ؟**

رد قطنبة وقد اشرأبت عنقه، وبان على وجهه بأس: **بالجهاد، بانتزاع الحقوق من غاصبيها. بقتال الظالمين السافكين للدماء.**

الشيخ من عليائه: **ظالم وأظلم.**

أزّ من صدر قطنبة أعلاه وقال راجيًا: **بيّن لي، ولا تتركني في حيرتي. المقهورون المقتولون المستباحة أموالهم ظالمون؟! البيان والرحمة يا مولانا.**

نظر الشيخ إلى الشمعة التي بانت كأنها باقية لا تذوب. قطنبة بين يديه كصبي يستفهم عن أمور تكبر سنه. تنهد وأغمض عيناه وأسرّ في نفسه أن يجاوز معه القدر المعلوم، وليكن ما يكن:

قاوم العربان الظلم بالظلم. فالقتال ليس هو الغاية، ولا يصح أن يكون به الابتداء. هو وسيلة للقربى، هو عبادة ولا بد للعبادة من نية تكون لله مخلصة. أرأيت هلاكًا يحل إن أخذ العبد بالأسباب

وسربل الإخلاص قلوب الجميع، أم أبصرت ظفرًا إن تخلف عن القلوب ما يضبط شهواتها ويقيم نزواتها؟!

نفس قطنبة الثائرة غلبته في هذه اللحظة فاستنكر الرد: **وما بال نيات المماليك إذن؟ يطلبون مكث السلطنة فيهم، ويُعمِلون من أجل ذلك كل سيف وذهب.**

سيل الإبانة استمر: **معركة من أجل دنيا هي إذًا؟!**

النفس الثائرة بُهتت فأكمل الشيخ يطرق على الحديد وهو بناره: **كل معركة تُنزع عنها النيات الصالحة فمآلها إلى أسباب البشر. جهزتم وجهزوا، عسكرتم وسلحوا لكن يظل الحال أنه لا فضل لكامل إيمان على ناقص دين، أو لمسلم على كافر؛ إذ يرفع الله يده عن المتصارعين ويغلب من كان الأقوى.**

خار قطنبة وهوى برأسه مرة أخرى. من وسط نشيجه الذي عاوده سأل: **وتُرانا لو أخلصنا النية؛ ماذا كنا فاعلين؟!**

- لو أخلصتم ما قاتلتموهم، ولو أخلصوا ما ظلموكم.

وقعت عليه الكلمة كالسيف يجلي عنه كل غيمة ظللت عقله، وبدا له أن يجر بقية الحكاية:

نجا الأحدب يا مولانا، وآواه أبو القاسم الطحاوي. أبو القاسم رجل عظيم الشأن وذو حظوة عند السلطان ورجاله، فكتب إلى شيخو يطلب العفو عن محمد بن واصل ورد أمواله وحرمه إليه. أحدبنا صار مطاردًا يطلب الأمان ممن كان يقول دومًا عليهم اللئام. وجاء الرد وارتحل الأحدب إلى القاهرة وأنعمه السلطان وأقطعه

وشرط عليه أن يقوم بدرك البلاد ويلتزم بتحصيل غلالها، وأن يكون مؤاخذًا بما يحصل فيها من فساد فقبل! قال بعض الناس أن "الأحدب يهادن زمنًا ما، هو يثبت أركان جذوة تمرد جديد، ينفخ الهواء على النار بتؤدة من تحت الثرى؛ حتى إذا قامت هذه المرة لا تخبو أبدًا".

بيعت الدماء يا مولانا، وما ثار أحد.

اعتصر قطنبة عينيه فسقط منهما دمع ثخين. ارتج كل جسده فنزل الشيخ من رقيه. طيب خاطر المسكين الذي ما عاد يأتمن أحدًا:

لا عليك يا ولدي. تلك قصة كل زمان ومكان. قليلون هم من فهموا الحكاية وأدركوا العلة. الظلم كائن ومقيم، والطريق الحق لمقاومته مهجور. الظلم حي، ورجال حربه الثابتون تعدهم على أصابع يدك. ولاية كل ولي جاءت من حيث الظلم؛ ظلمه لذاته ورهقه لقلبه، وبعد الإشراق يفيق ويُلهَم البصيرة. ضلال كل عاص أتى من حيث الظلم؛ وبعد الزلة الأولى تكون الغفوة تطول أو تقصر. كل بشري هو من يحدد أي الطريقين لنفسه. لا جبر ولا قهر بل مطلق العنان يُعطى وكل نفس بما كسبت بصيرة. أبناء آدم نفسه وهو أول البشر كان منهم الظالم لنفسه ولأخيه. إبليس ذاته ما عصى الله إلا بعد أن ظلم نفسه. وأنا، وأنت والعربان والمماليك؛ إن نحن إلا كائنات ظالمة لأنفسها في دنيا الله الرحبة. تلك حكاية السكون عبر الزمن يا ولدي؛ نهرول بالسعي لكن ما نبرح مواضعنا في هذا الوجود. لا الطغاة ينتهون، ولا المظلومون يتعظون.

ثبت الشيخ سبابته في الرمل من تحته:

ها هنا النجاة لمن طلب ورغب. إنّ الثورة تنبت بذرتها حينما تزهر أولًا في نفوس الناس وصدورهم. أما قبل ذلك فلا خير يرجى، وإن أكلت نارُها الحاكم الظالم وما يملك.

كأنّ أجليت عن قطنبة روحه التائهة، وأُلبس نفسًا جديدة وارتضى أن يدخل عالم التوبة. تطلع في وجه الشيخ وكله لهفة وشوق:

أما آن أن تخبرني من أنت يا مولانا؟ هل يعز على المريد أن يعرف شيخه؟

بعينين مثبتتين في الأرض وصوت خاشع رد الشيخ: **أنا أخو الشيخ عليش، أنا قاتل أخيه.**

افتعلت في نفس قطنبة أفكار ومشاعر شتى. أراد الكلام فما قدر. مادت المغارة في عينه وتكورت عليه في عقله وشعر بالدوار. تمكن أن يصرخ:

يا رب... وأُغمي عليه.



" تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ".

قرآن كريم.

تمت.